مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد السابع والعشرون - المجلد الرابع - التاريخ - آذار 2026م
doi.org/10.52866/esj.2026.04.27.14

التأثير الروماني على الشعوب المغلوبة خلال القرن الاول والثاني الميلادي (الهوية الرومانية أنموذجاً)

م.م. مريم عمر صالح البلام
الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات

مستخلص:

بعد ان نجحت روما بترتيب امورها الداخلية بعد عام 753ق.م، ونشر الامن والنظام داخل ربوع مملكتها، وبمعنى اخر بعد ان تمكنت من الوقوف على قدميها داخل اراضيها كدولة ، بدأت تتطلع لتحقيق حلمها التوسعي، والذي شمل ضم اكبر عدد ممكن من الاراضي من اجل الاستفادة منها سواء من خيراتها او شعوبها، وفي سبيل تحقيق هدفها المنشود بدأت بتجييش الحشود صوب المناطق الشرقية وحتى الاوربية في كل مرة تسنح لها الفرصة، فكانت تفكر من خلال ذلك بديمومة مركزها وتفردها بالسيطرة المطلقة على البلدان ولوقت طويل، وفي سبيل ذلك سعت لأنفرادها بهذه المهمة ودخلت على اثر ذلك في معارك عديدة نجحت في اكثرها، ونتيجة لذلك حققت ما كانت تصبو اليه، اذ اضحت مناطق الشرق القديم ، فضلاً عن بريطانيا وبلاد الغال والعديد من الولايات الاوربية القديمة تابعة لها ولمدة طويلة من الزمن، ومن خلال هذه السيطرة بدأت بتفعيل سياسة الرومنة من اجل ربط هذه الولايات بها قدر الامكان وجعلها مناطق تابعة لها مستفيدة منها، مما ادى الى ولادة افكار جديدة سواء في روما او في الولايات التي سيطرت عليها، فنتج عن ذلك عملية تأثير وتأثر بين الجهتين حتى وان كانت روما قد تغلبت في نشر رومنتها في هذه المناطق اكثر من اكتسابها عاداتهم المتعارف عليها.

الكلمات الافتتاحية: الرومنة، الامبراطورية، السيطرة ، الامبريالية، الثقافة.

Maryam Omar Saleh Al balaam

Abstract:

After Rome Succeeded in arranging its internal affairs 753BC, and spreading security and order within its kingdom, in other words, after establishing itself as a state within its own territory, it began to aspire to achieve its expansionist dream, which involved annexing as many lands as possible to benefit from their resources and people. To achieve its desired goal, it began mobilizing forces towards the eastern and even European regions whenever the opportunity arose. Through this, it envisioned the perpetuation of its position and its exclusive and absolute control over these countries for a long time. To this end, it sought to monopolize this task and consequently engaged in numerous battles, most of which it won. As a result, it achieved its ambitions, as the regions of the ancient east, in addition to Britain, Gaul, and many other ancient European states, became subject to it for a considerable period. Through this control, it began to implement a policy of Romanization to integrate these states as much as possible and make them dependent territories from which it could benefit. This led to the birth of ideas both in rome and in the states it controlled. This resulted in a process of influence and being influenced between the two sides, even though rome succeeded in spreading its Romanization in these, regions more than in acquiring their established customs.

Key Words: Romanization, Empire, Control, Imperialism, Culture.

المقدمة:

لطالما سعت روما ومنذ نشأتها بأن تُكون لنفسها اسم يعتدُ به بين حضارات العالم القديم، وبالفعل بدأت تبذل قصارى جهدها من اجل تحقيق هدفها المنشود، فبعد ان نجحت بأعلان نظامها الملكي، وتسوية امورها الداخلية ادارياً وعسكرياً واقتصادياً، بل وحتى اجتماعياً بدأت تتطلع لتوسعة رقعة دولتها خارج حدود المنطقة، وفي سبيل ذلك قادت العديد من الحملات العسكرية صوب العديد من المناطق سواء تلك الواقعة ضمن رقعة الشرق الادنى القديم او المطلة على حوض البحر المتوسط، وابرز حرب قادتها في سبيل تحقيق طموحها هي الحرب البونية، فمن خلال هذه الحروب نستشف بأن روما لم تخطط لهذه الحروب عبثاً بل كان لها اسباب عديدة منها سياسية اي السيطرة على اكبر عدد ممكن من الاراضي والاستفادة من خيراتها، واقتصادياً من اجل الاستحواذ على عصب الاقتصاد، لا سيما الطرق التجارية القديمة محاولة بذلك دعم دولتها الفتية، وحتى اجتماعيا ودينياً.

وفي سبيل ذلك وحالها حال مصطلح الهيلينية الذي ظهر خلال عهد الاسكندر وخلفاؤه من بعده في منطقة الشرق بدأ يتغلغل مصطلح الرومنة[1] ونشر الثقافة الرومانية في كل المناطق المغلوبة، محاولة بذلك روما صبغ المنطقة بالصبغة الرومانية لكي يسهل عليها قيادة هذه المناطق وشعوبها سواء بالقبول او الاكراه، فليس كل الشعوب التي اخضعتها روما رضخت مباشرة لما تطلبه الاخيرة، فمثلاً الشعب اليهودي الذي كان يعيش في فلسطين لم يكن مرحباً ابداً بالرومنة وصبغ مجتمعه بالهوية الرومانية، وحتى الهيلينية قبلها، اذ اعتبروا هذه الامور تدنيس لديانتهم وتعاليمهم الدينية، ونتيجة لذلك تمخضت العديد من التمردات التي قادها هؤلاء ضد الدولة التي بدأت تفرض عليهم تعاليم اجنبية وثنية حسب ما ذكروه، الا انها وبسبب تاريخها العسكري الطويل نجحت في اخضاع اعداد كبيرة الى مخططها بمرور الوقت ، وهذا ما سنلاحظه بين ثنايا البحث.

لا بد من الذكر بأن فرض روما للهوية الرومانية وقولبة الشعوب المغلوبة بهذه السياسة كما تريد كان حسب تفكيرها بأن تكون مسيطرة عليها من النواحي كافة من اجل اخضاعها وضمان استقرارها حتى تتفرغ للاعداء الخارجيين المنافسين لها على اراضيها، فهي طول مدة وجودها دخلت في حروب ضروس سواء مع دول الشرق او حتى الولايات الاوربية، وهي بذلك ستضمن الاستفادة من هذه المناطق وشعوبها ومن النواحي كافة من خلال نشر تعاليمها وعاداتها بطريقة الترغيب تارة والترهيب تارة اخرى، ومن هنا جاء سبب الاختيار لعنوان البحث من اجل الاطلاع على طبيعة الادارة الرومانية وكيفية تعاملها مع نشر ثقافتها وهويتها، وهل هي مشابهة لفكرة الهيلينية التي نشرها خلفاء الاسكندر المقدوني بعد توليهم الحكم لمنطقة الشرق؟.

قسم البحث الى مجموعة من المحاور: المحور

(1) الرومنة:عملية ثقافية – اجتماعية – سياسية قائمة على اجبار الشعوب المغلوبة لتبني الثقافة واللغة الرومانية، ويعود تاريخ انتشار هذه العملية الى القرن الخامس الميلادي، الا انها لاقت ترحيب كبير خلال النصف الثاني من القرن الاول قبل الميلاد. للمزيد ينظر:
Revell, Louise, Roman imperialism and local identities,(Cambridge: Cambridge University Press,2009),p.69.

الاول (فلسفة الرومنة)، والذي تناولنا من خلاله طبيعة المصطلح وهدفه، واهم الامور المتبعة لتطبيقه، في حين تناولنا في المحور الثاني (روما عاصمة الرومنة) بوصفها مركزاً رئيسياً نشرت منه فكرة التأثيرات الرومانية الى باقي بقاع الارض، اما بالنسبة للمحور الثالث (الرومنة الثقافية)، فقد تطرقنا الى طبيعة التأثير الثقافي الروماني واهميته، وفي المحور الرابع(دور الجيش في الرومنة)، والذي بينا فيه ما كان لهذه الفئة من دور مهم في نشر افكار التأثير بشكل كبير جدا، واخيرا المحور الخامس(الرومنة والمواطنة الرومانية) والتي وضحنا فيها العلاقة التي نتجت بين التأثير والتأثر اي بين سكان روما الاصليين والمتأثرين ومدى تقبلهم لهذه التأثيرات .

أولاً: فلسفة الرومنة:

كانت الإمبراطورية الرومانية شاسعة الامتداد؛ ضمت أقاليم امتدت من شبه الجزيرة الأيبيرية التي يحدّها المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي ونهر الفرات شرقاً، ومن سور هادريان، ثم سور أنطونيوس في الشمال إلى منابع النيل وأطراف الصحراء الكبرى في الجنوب. لقد نُظر للتوسعات العسكرية الرومانية من عدة نواح، نُظر إليها على أنها نتيجة مباشرة للروابط الوثيقة بين السياسة الرومانية الداخلية، وأيديولوجية عسكرية بأمتياز، كان مفهوم الإمبراطورية الرومانية في العالم القديم مرادفاً للسيادة أو السلطة المطلقة في هذه الأيام[1]،

وعلى امتداد هذه الرقعة الشاسعة التي قُسّمت إلى ولايات وضمّت شعوباً وحضارات متباينة، وكانت تدار من روما، سرعان ما حدث نوع من التفاعل الحضاري بين روما وولاياتها، والذي يطلق عليه المؤرخون مسمى «الرومنة»[2] Romanization[3]، والتي تشبه الى حد ما الهيلينية[4].

ومن الجدير بالذكر أن أعظم أعمال العصر الإمبراطوري يجب أن تُبحث في إدارة الأقاليم، فثمار هذه الإدارة، بل ثمار الرومنة نفسها، هي ثمار الحضارة[5]، اذ اعتقد الرومان أنه لم يكن خارج حدود الإمبراطورية سوى قبائل من الهمج

(1) (Hanssen, A. B., Romanization - discourse and changing concepts., An analysis of altering interpretations of Roman-native cultural encounters, their participants and dynamics., Master Thesis in Archaeology Department of Archaeology, Conservation and History University of Oslo Spring 2009, p.3.

(2) الرومنة: عملية ثقافية – اجتماعية – سياسية قائمة على اجبار الشعوب المغلوبة لتبني الثقافة واللغة الرومانية، ويعود تاريخ انتشار هذه العملية الى القرن الخامس الميلادي، الا انها لاقت ترحيب كبير خلال النصف الثاني من القرن الاول قبل الميلاد. للمزيد ينظر:
Revell, Louise, Roman imperialism and local identities,(Cambridge: Cambridge University Press,2009),p.69.

(3) (Miguel John Versluys, Understanding objects in motion. An archaeological dialogue on Romanization., Archaeological Dialogues 21 (1) 1–20 C Cambridge University Press 2014, p.8.

(4) الهيلينية: ثقافة جديدة نشأت نتيجة فتوحات الاسكندر، واصبحت تعرف بالهيلينية، وكان الاغريق يدعونها بـ(Hellenism)، فهي مزيج من التعليم اليوناني والفنون ومزجها بالثقافات الشرقية، فهذه الثقافة استمرت حتى في المدة التي تلت السيطرة الرومانية على المناطق التي سبق وان كانت تحت السيطرة اليونانية، فعن طريق هذه الثقافة بنى اليونان المدن اليونانية والمدارس والملاعب والمسارح والمعابد، وبالفعل تم اكتسابها من قبل سكان الشرق.
Palmer, Micheal, Israel in the Hellenistic Age,(History &Literature of the bible,2002),p.19.

(5) (Hanssen, A. B., Op. Cit., 2009, p.11.

المغمورين، الذين يمكن غزوهم في أي وقت يتبين فيه أن غزوهم يستحق بذل ذلك الجهد؛ فالإمبراطورية في رأي الرومان كانت تشمل العالم كله، من وجهة النظر الجوهرية والنظرية[1]، وإن اختيارهم لهذه الكلمات يكشف عن موقف السيطرة الذي لا لبس فيه: ففي الأراضي التي كان يحكمها الرومان، كانت الحضارة الرومانية قد ترسخت بقوة... وفي الخارج كانت الفوضى العارمة للبربرية، فهم يمجدون في نهاية المطاف الغزو الإمبراطوري والدخلاء الرومان، الذين عملوا كرسل للحضارة، بأعتبارهم مصلحين ثقافيين خيرين، وإن لم يكونوا معصومين تماماً من الخطأ، إلا أنهم أعادوا النظام إلى عالم «همجي» يسوده الخلاف والصراع، على حد وصفهم. وبالعموم يشبه أنصار هذا التيار دور الإمبراطورية الرومانية بدور الإمبراطورية البريطانية في أوائل القرن العشرين[2].

لم تكن القوة الرومانية وانتصارها سوى عامل واحد من بين عوامل عديدة تُفسر التغير الثقافي، لقد كانت «الرومنة» أعمق من سلطة الإمبراطورية وإدارتها للأقاليم التي أخضعتها بقوة السيف، وإن التركيز الحصري على «السيطرة» سيستمر في التسبب -على الأرجح- في تفسيرات أحادية البعد إلى حد ما؛ فقد أظهرت عدد كبير من الدراسات المعمقة الطابع النسبي والسياقي لما كنا نسميه رومانياً أصلياً، أو هجيناً؛ نتج متأثراً بثقافات أخرى، وخاصةً فيما يتعلق بالثقافة المادية، ويتضح ذلك من خلال الاستخدام الشائع لمصطلح «هجين» لوصف القطع الأثرية والسياقات الأثرية، إن كل شيء بطريقة أو بأخرى في الإمبراطورية الرومانية هو «هجين»؛ أي أنه نتاج تفاعل ثقافي أسهم في ميلاده، وبالتالي هذا المصطلح: «هجين» هو أفضل ما يمكن أن يعبر به عن الرومنة كتفاعل حضاري[3]، فحتى لو كانت الرومنة تتضمن نشر الأفكار والعادات والتقاليد وأنماط العيش الرومانية بين مختلف طبقات مجتمع السكان الأصليين، إلا أن الاستجابة تمت بالطريقة التي تناسب هويتهم الذاتية، ونتائجها كانت متفاوتة ما بين مجتمع وآخر؛ حسب طبيعة التكيف الثقافي لمجتمعات السكان الأصليين مع الثقافة الوافدة، هذا ناهيك عن التيار المقابل القادم من الولايات باتجاه روما، وأثره العميق فيها[4]، اي ان هذا يعني بأن روما في الوقت الذي سعت به نشر ثقافتها بين الشعوب المغلوبة هي ايضا تأثرت بمجموعة من المؤثرات، وهذا ما ولد عملية تأثير وتأثر بين جانبين ، ومن خلال ذلك لا بد لنا من طرح تساؤل وهو ان روما كانت تنظر الى الشعوب خارج مملكتها بأنهم همج رعاة لا يفهمون شيئاً من الحضارة فكيف اذن اثرت وتأثرت بهم؟ كيف استقت من هذه الشعوب العديد من التقاليد المتبعة من قبلهم؟ وهل هذا سبب جعلهم يستخدمون مجاميع من سكان هذه المناطق كعبيد؟، وهل كان للهيلينية ونجاحها دور في تشجيع الرومان على قولبة الشعوب المغلوبة بالرومنة؟. كل هذه التساؤلات سوف نوضحها تباعاً.

في الواقع إن حضارة روما حضارة جديدة فرضت نفسها مع الوقت؛ فالسيراميك والفخار

(1) برتراند، رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، تر: زكي محمود، (مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، المملكة المتحدة 2023م)، ص366.

(2) (Hanssen, Romanization…, p.11.

(3) Miguel, Understanding objects in motion… , p.8.

(4) Bruin, J, de., *Border Communities at the Edge of the Roman Empire*.,(Amsterdam University Press, Amsterdam 2019), p.7.

والحمامات وأنماط العمارة، العاب السيرك، بل وحتى أنماط الطعام التي كانت صدى لعادات غذائية جديدة، ولسياسة صحية جسدية متطورة، ولعلاقات اجتماعية متجددة، ولأذواق متحركة أيا كان الانتماء الاجتماعي، لقد كان لكل أسبابه الجيدة التي تحمله على الاندماج في العرف السائد[1]، فبعد أن حققت روما انتصاراتها الكبرى، لم يكن من الممكن أن تجمع ثمارها إلا بأن يعمل الناس معاً، لقد وصل الأمر لنقطة صار صالح الكل مرتبطاً بصالح الفرد، وصالح كل فرد صار مرتبطاً بصالح الكل، وقضية تحقيق ذلك هي قضية معقدة أكثر من الفضائل البسيطة لرجل بسيط، فحاجتها الأولى تتركز في الثقافة والبصيرة الروحية والحكمة والنزاهة[2].

لقد كانت الرواقية[3] فلسفة رومانية تمت الاستجابة فيها لسياسة الرومنة، فمنذ القرن الأول الميلادي مال الرومان لتعلم الرواقية، وخصوصاً بعد أن نجح أحد روادها[4]، بالتوفيق بينها وبين احتياجات رجال الدولة والأباطرة، وهذا ما كان مطلوب انذاك، وربما أنها كانت أفضل من أية فلسفة مما أخذ به اليونان في أيام حريتهم؛ فالرواقيون قد آمنوا بإخاء بني الإنسان، ولم يقصروا عطفهم على اليونان وحدهم، وكان من نتائج طول أمد سيادة روما أن تعود الناس فكرة قيام حضارة واحدة في ظل حكومة واحدة[5]، وكانت الطبقة الأرستقراطية أول من تقبلت الرومنة، فإضافةً لمكافأة الأرستقراطيين المحليين الانتهازيين بجوائز رومانية، قام الجنرال الروماني أغريكولا بتشجيع السلوك الروماني بين الأرستقراطيين المهزومين، واستغل عمداً محاولاتهم الواضحة للتفوق على بعضهم بعضاً، ونظراً لقلة خبرتهم، أطلق السكان الأصليون على هذه الأنماط من العلوم اسم «حضارة»، حتى لو كانت في الواقع دليلاً على استعبادهم[6]، وهنا نرى بأن روما حاوطت هذه الفلسفة بالأهتمام دون غيرها لا لمحبة بها او بروادها ، بل لأنها تخدم سياستها الجديدة، مساعدةً بذلك على نشر تعاليمها بسهولة بين اليونانيين وغيرهم.

طبعا هذا لا يعني أن الاختلافات بين الرومان وسكان الولايات الأصليين لم تكن مهمة –بل كانت مهمة للغاية– وبتعبير أدق إن ما كان يحدث هو لقاء بين هويات عرقية وثقافية متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، كانت مرنة وقابلة للامتزاج والتفاعل[7]،

(1) لورو، باتريك، الإمبراطورية الرومانية، تر: جورج كتوره، (دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي 2008م)، ص99.

(2) هاملتون، اديث، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، تر: حنا عبود، (منشورات وزارة الثقافة، المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق 1997م)، ص236.

(3) الرواقية: مذهب يوناني فلسفي بدأ بالظهور خلال القرن الثالث قبل الميلاد مفاده ان السعادة الحقيقية تنبعث من سلام الذات واتزانها وليس من الخارج، وفي سبيل ذلك يجب التحكم بالعواطف والعيش بأنسجام مع الطبيعة والعقل. بيرنت، جون، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: احمد لطفي السيد، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1940)،ص39.

(4) من اشهر رواد الرواقية: الامبراطور الروماني ماركوس اوريليوس (180–121م) ومؤسسها ذو الاصول الاثينية زينون الكتيومي(300ق.م)، فضلا عن سينيكا فيلسوف ذو اصول اسبانية عاش خلال الحقبة (4ق.م – 65م). للمزيد ينظر:

Bowman, Jhon L., Stoicisim, Enkrasia and Happiness,(United Statesof America: Luniverse,2011),p.79

(5) برتراند، رسل، تاريخ الفلسفة الغربية...، ص366.

(6) Hanssen, Romanization…, p.12.

(7) Miguel, Understanding objects in motion… ,

وقد توفرت لذلك التقارب عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار، وهذا التفاعل كان يتم في مناطق مختلفة من الإمبراطورية بنسب متفاوتة[1].

لقد أدى الاحتكاك المباشر مع الثقافة التي ترى نفسها أعلى، والتي جلبها معهم الرومان المنتصرون، إلى موجة من المباراة بينها وبين كل العقول الفطنة من أبناء الولايات، وعندما كانت الفتن تقوم بين هؤلاء السادة المنتصرين، أو يتكشف انحطاطهم المعنوي، كان أبناء الولايات يجردون أقلامهم التي اتقنوا شحذها في وجههم، وأخذوا يستخدمونها في التعبير عن أنفسهم، واستعادة استقلالهم الذي فقدوه[2]، استخدم هؤلاء لغة وكتابة المنتصرين في مؤلفاتهم، بعد أن تعلموها وأبدعوا بها، حتى إن الأدب الروماني لم يكن كله روماني الهوية، أي من إبداع الرومان الأقحاح، فكثير من الشعراء والأدباء والمؤرخين جاءوا من أقاليم الإمبراطورية المختلفة، ومن أصول إثنية غير رومانية، وفي المقابل عندما تعلم هؤلاء الأدباء من أبناء الولايات اللغة اللاتينية وكتبوا بها، لم يكن ذلك بمعزل عن نمط الحياة والفكر الروماني أو التشبه به أو تقليده، وكل هذا يكمن في صلب ظاهرة أو عملية «الرومنة» التي انتشرت في ربوع الإمبراطورية، والتي كانت اللغة اللاتينية والنتاج الأدبي لغير الرومان أحد مظاهرها ومكوناتها[3].

لقد كانت العوامل الثقافية الخلاقة آخذه بالتطور، بين مختلف الشعوب والأمم التي تشكل قوام الإمبراطورية الرومانية، وكذلك الامتزاج غير المعلن، ما يعتبر أساس التغيرات التي يصعب ملاحظتها في مظاهر الاستمرارية[4]، وبالتالي مثلت «الرومنة» التلاقح الثقافي العميق الذي وقع لأول مرة بين روما وأرجاء العالم القديم مجتمعةً دون أي حواجز، إن هذا التلاقح هو «الرومنة» الحقيقية، واستخدام مصطلح «الرومنة» للتعبير عنه، إشارة إلى دور روما في رعايته، لا إلى القوة الفاعلة فيه، فمثلما كانت روما مؤثرة في جوانب، كانت متأثرةً في جوانب أخرى، ويبدو أن ظاهرة التأثر هذه كانت نسبية بفروق كبيرة ما بين ولايات الإمبراطورية الشرقية والغربية.

لقد استمر هذا التفاعل الحضاري بأعمق آلياته خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، ومن المهم التنويه إلى أن هذا التفاعل الحضاري له وجهان سلبي وإيجابي، مثله مثل أي فعل تاريخي، وبناء على ما تقدم علينا أن نبدل نظرتنا الأحادية التقليدية عن «الرومنة» بأنها ذات طابع استعماري مرفوض، وعلينا أن نخفف من غلو بعض المؤرخين الغربيين عن «الرومنة» بأنها رسالة السلام والتقدم والحضارة التي أبدعها الإغريق، ووقع على عاتق الرومان حملها إلى أمم الأرض، دون إغفال حقيقة لا مفر منها هي إن الإمبراطورية الرومانية قد نجحت في توحيد العالم المتحضر في دولة واحدة، وهو أمر عجزت عنه كل من المليكات الشرقية والمدن

p.8.

(1) إيمار، اندريه، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج2، روما وإمبراطوريتها، تر: فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط2، (منشورات عويدات، باريس-بيروت 1986م)، ص371.

(2) بابليون،جان، إمبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، تر: يوسف شلب الشام، (دمشق 1987م)، ص36.

(3) الزين، محمد، الكتابة والتدوين عند الرومان حتى القرن الأول قبل الميلاد، ضمن مشروع نقد الحضارة الغربية، الكتاب التاسع (الرومان بين القرنين الخامس والأول ق.م)، (المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت 2022م)، ص ص25 - 26.

(4) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص97.

الإغريقية في العالم القديم[1].

لقد تابعت الهيلينية تجديد نفسها بوصفها عصب المدينة في الشرق، بينما تابعت الأقاليم الغربية تحولها نحو اللاتينية في إطار بلدي، فكونية النموذج الذي تم تبنيه بشروط محلية قد انتبه إلى التنوع في الوحدة. قد لا يكون صدفة أن الحواضر صغيرة كانت أم كبيرة، قد دانت في تفتحها وحريتها إلى الإمبراطورية. لكن الملاحظ هو أن المجموعتين قد عاشتا تلاقحاً، وقد تطورتا على معيار الأحداث التي حملت التهديدات والأخطار؛ فمن مقاومة الإمبراطورية تنبع مقاومة الحواضر، ولا عجب في ذلك. لكن ما يسترعي الانتباه هو أن عالم الحواضر قد ركز الطاقات وانتباه النخب الفاعلة والطموحة، أي نسبة مئوية صغيرة مما مجموعه 80 مليون نسمة، ثمة جماعات من الأفراد قد ظلت بمنعزل عن المراكز المتمدنة، وعلى مسافات بعيدة منها يصعب اجتيازها، علما أن هذه المجموعات قد ظلت في الإطار السياسي السائد. وهذا الحديث لا يقصد به أبناء الريف الذين لا تتكلم المصادر عنهم إلا نادراً، بل فئات مختلفة ومتنوعة من سكان الإمبراطورية ارتضت أن تظل على الهامش، ولأسباب مختلفة أيضا، وكانت شاهداً بأن السلطات الحكومية لم يكن في استطاعتها أن تراقب كل شيء[2]، فرغم أن قادة الفكر وأولي الرأي في أجزاء الإمبراطورية التي تنطق باللغة اليونانية أخذوا على التوالي في تقبل الأوضاع الراهنة والموافقة عليها وهجر الأحلام التي كانت تجيش في صدورهم عن الحرية وشرعوا يعملون على توطيد سلطان روما في الشرق، إذا كانت الطبقات العليا نوعاً ما مطمئنة إلى السلطة الإمبراطورية الرومانية، إلا أن طبقات الشعبية لم تكن كذلك[3]، فعلى سبيل المثال لم تنتشر اللغة اللاتينية في سوريا إلا ببطء، وفي أوساط الطبقة البرجوازية في المدن الفينيقية والمدن الكبرى فقط، تلك الطبقة التي كان الرومان ينعمون على أفرادها بالجنسية الرومانية[4].

كان الدكتور برنارد لويس قد حاول الإجابة على هذه المعضلة، عندما سأل هل نظر سكان الولايات الشرقية إلى روعة منجزات روما العمرانية، والنظرة نفسها التي ننظر لها نحن اليوم؟ فكان جوابه أن نصاً عبرياً قد يلخص لنا الإجابة بكثير من المصداقية، فالنص يوضح بجلاء كيف كان سكان الولايات الرومانية الشرقية، بما فيهم اليهود، ينظرون إلى فوائد ونتائج حكم الإمبراطورية الرومانية، النص يعرض محادثة بين ثلاثة من الحاخامات اليهود في القرن الثاني الميلادي: الحاخام بوذا بدأ الكلام بقوله: «كم هي رائعة أعمال هؤلاء الرومان؛ لقد بنوا الأسواق والطرق والجسور، والحمامات»، بينما يصمت الحاخام جوزيه موافقاً، إلا أن الحاخام اليهودي سيمون بار الذي عاش خلال هذه الحقبة يرد محتدا فيقول: «إن كل الذي فعلوه، قد فعلوه لاحتياجاتهم فقط، لقد بنوا أسواقا ليعرضوا فيها العاهرات، وبنوا الحمامات ليجملوا أنفسهم، أما الجسور ليجمعوا الضرائب والإتاوات». وذهب الحاخام بوذا وأخبر السلطات بكلامهم، فكان رد الرومان: «أرفعوا قدر بوذا الذي أشاد بنا، وانفوا جوزيه الذي كان صامتاً إلى صفوريه، واعدموا

(1) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، تر: زكي علي ومحمد سليم سالم، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م)، ص193.
(2) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص93.
(3) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية...، ص185.
(4) الناصري، سيد احمد علي الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط2، (دار النهضة العربية، القاهرة 1991م)، ص74.

سيمون الذي نبذنا»[1].

ومن خلال ما تقدم نرى بأن روما بالرغم من النظرة الدونية التي كانت قد اخذتها في بادئ الامر عن سكان الولايات المجاورة لها سواء الشرقية او الغربية الا ان هذه النظرة كانت مؤقتة، او من الممكن ان تكون قد اتخذتها كغطاء لفرض تأثيرها على هذه الشعوب من خلال اقناعهم بأنهم اقل مكانة منهم ، لاسيما بعد ان وصفت افرادها بالهمج الرعاة، والدليل على ذلك هي لم تؤثر فقط بل تأثرت، فأذا كان هؤلاء همج كيف تأثرت بهم، واصبحت الكثير من عاداتهم متبعة داخل المجتمع الروماني؟.

ثانياً: روما عاصمة الرومنة:

كان اغسطس[2] يريد أن تكون روما عاصمة العالم، ويقيناً منه بحجم الهوة بين روما والولايات الشرقية المتفوقة عليها؛ ذات التاريخ العريق (اليونان، سوريا، مصر)، فتم الترويج لفكرة مفادها أن روما مقدر لها من الآلهة أن تحكم العالم المسكون (اي اسباغ الفكرة بالطابع الديني لسهولة تقبلها)، وسعياً في نشر الفكرة وترويجها، كلف الشاعر فرجيل Vergil (70- 19ق.م) بصياغة ملحمة تاريخية تكون خطاب روما الخالد، وإن الموضوع الحقيقي في الإنياذة ليس إنياس، بل روما وأمجاد إمبراطوريتها، حتى أن العنوان الأول الذي أطلق عليها هو «**مآثر الشعب الروماني**»[3]، وبهذا أرسى أغسطس بواسطة الإنياذة صورة عالم يرتكز على روما، فهي المدينة المنتصرة، وسيدة العالم، العاصمة الوحيدة، مركز الإمبراطورية، والرأس المرئي الذي لا هوية له لأراضي تسيطر عليها وتقوم بتنظيمها[4]، ولعل هذا الخطاب يتجلى في أكثر من موضع في الإنياذة بوضوح تام، إذ يجعل فرجيل جوبتير[5] يقول عن مجد روما: «**لشعب روموس لم أضع هدفا محدداً يحققه، لذلك لانهاية للإمبراطورية، لقد منحتم سلطة لا حدود لها**»... «**روما التي سينبسط حكمها على الأرض، ويمتد مجدها إلى السماء**[6]»... «**سوف ينتشر حب البلاد والعطش الشديد للمجد.... قد ينحت الآخرون -بمهارة أكثر تفوقاً- تماثيل من البرونز يجري في عرقها الدماء، إني أؤمن بذلك حقاً، وقد يشكلون من الرخام وجوها تنبض ملامحها بالحياة، وفي ساحات القضاء قد يصوغون عبارات الدفاع ببراعة أكبر، قد تصف أقلامهم أفلاك السماء ومداراتها، وقد يلمعون بمطالع النجوم، أما أنت أيها الروماني فليكن واجبك أن تحكم جميع الأمم بقوة عظيمة، وليكن فَنُّك أن تعلم الناس طرائق السلم، وأن**

(1) Lewis. B., The Middle East 2000 years of History from the Rise of Christianity to the Present Day, London, 1996.

(2) اغسطس: ويعني المبجل، اسمه غايوس اكتافيوس ولد عام 63ق.م، وهو اول امبراطور روماني حكم خلال العصر الامبراطوري ، وهو الابن المتبنى لـ يوليوس قيصر تولى حكم روما عام 27 ق.م وتوفي عام 14 م. للمزيد ينظر:
Grossman, Mark, World Military Leaders: A Bioghraphical Dictionary ,(New york :facts On file, Inc,2007),p24.

(3) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص202.

(4) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص38.

(5) جوبيتير: كبير الهة الرومان، اله السماء المسيطر عل الكون. هاملتون، اديث، معجم الاساطير اليونانية والرومانية، تر: عبد الاله الملاح، (دار المدى، 1999م)، ص 14.

(6) فرجيل، الإنياذة، تر: عنبرة سلام الخالدي، ط4، (دار العلم للملايين، بيروت 1985م)، ص147.

تشفق على الذليل وأن تذل الفخور[1]»، وهكذا تم افهام سكان الإمبراطورية، أن روما هي القدر الذي لا مفر منه.

أما الفكرة الثانية التي سعى الرومان لرواجها وهي: إن روما ذات أصول شرقية، وأنها امتداد حقيقي لطروادة[2]، وسعياً في تأكيد أصلها الطروادي المزعوم، تم تحويل إسكندرية تروا اليونانية Alexandria Troas على يد الإمبراطور أغسطس إلى مستعمرة رومانية، وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هذه البلدة (حصار لك) وسميت باسم إليوم Illium الجديدة، واضحت بعد بنائها مقصداً للسياح، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة في الإنياذة، ويطلعونهم على الكهف الذي حاكم فيه باريس هيرا[3] وأفروديت[4] وأثينا[5]،

(1) المصدر نفسه، ص147.

(2) طروادة: مدينة قديمة تقع في اسيا الصغرى (الاناضول)، اشتهرت بكونها ساحة اهم حرب اغريقية شهدها التاريخ ، الا وهي حرب طروادة التي وقعت بين الاغريق والطرواديين كما وردت في ملحمة الانياذة للشاعر هوميروس. هوميروس، الالياذة، تر: دريني خشبة، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2003م)، ص16-13.

(3) هيرا: زوجة الاله زيوس وملكة الهة الاولمب، الهة الزواج والنساء ، كانت تعرف بغيرتها الشديدة من معشوقات زيوس. هاملتون ، معجم الاساطير...، ص 75.

(4) افروديت: الهة الحب والجمال في الاساطير الاغريقية، تقابلها الالهة فينوس عند الرومان، يقال انها ولدت بالقرب من جزيرة قبرص من زبد البحر. المصدر نفسه، ص14.

(5) اثينا: الهة العدل والحكمة والحرب لدى الاغريق، ابنة زيوس المفضلة، ويقال انها ولدت مرتدية درعها من رأس والدها. The Oxford classical Dictionary, 4th edition, (Oxford University press,2012)p9

والأمرّ من ذلك أن روما استندت إلى هذا الأصل المشرقي المزعوم للمطالبة بجميع بلاد الأناضول[6]، وهكذا سعى الرومان من خلال الشعر (الإنياذة) والتاريخ (طروادة) أن يتقربوا للشرق أكثر، حتى يكون حكمهم له أكثر قبولاً، وبالتالي كانت روما ترفع أول الحواجز بينها وبين الشرق عندما أصرت أن أصولها منه.

إن روما التي أمست في عهد أغسطس عاصمة العالم القديم دون منازع، لم تكن لتكتفي بالشعر والتاريخ، بل كانت بحاجة إلى المال والرفاه والأبهة أيضاً، ودون ذلك لن يقنع أحد بمحوريتها، وبالتالي لم تكن سياسة أغسطس في الولايات الرومانية عبثية، بل كانت تُعبر عن عمق النظام الرأسمالي الذي يحكم في روما، ودفع الأمور لصالح المركز، فبعد أن احتل الرومان المناطق المأهولة في العالم القديم وحولوها إلى ولايات رومانية، سخروا محاصيلها من القمح وغيره لصالح روما وأبنائها، كما سعوا إلى تجميل عاصمتهم الإمبراطورية، وذلك بتأمين وسائل الرفاه المزيف في مظهر مساكنها، فأخذوا يستغلون المحاجر والأحراج في الولايات، ولم يوفروا جهداً في جلب الخبراء والحرفيين والصناع المهرة إلى روما، كما لم ينقطع عن روما سيل اليد العاملة من الولايات، سواء كانوا من الأحرار، أم من العبيد، أم من أسرى الحروب، لقد استعمل الأباطرة الرومان هؤلاء العمال في إعادة تشييد روما، وجعلها أجمل مدن العالم، فالرأسمالية تهتم بالمظاهر البراقة الخادعة، التي تعطي انطباعا بالقوة والعظمى والرفاه، حتى أن أغسطس كان يفخر بأنه

(6) ديورانت، ول، قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ج2، مج3، تر: محمد بدران، (بيروت 1988م)، ص134.

حول روما إلى مدينة مبنية بالرخام بعد أن كانت مبنية بالآجر واللِبن.

لقد كان هدف أغسطس المعلن هو تحقيق السلم والاستقرار في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية شرقاً وغرباً وفي روما؛ إلا أن ذلك لم يكن إلا كذبة كبيرة، فالاستقرار لم يكن حقيقياً، والازدهار كان قائماً على نظام رأسمالي ربوي وصلت فيه نسبة الفائدة إلى ٪48، وانتهازي تم من خلاله نهب ورادات الولايات الرومانية[1]، اي ان مسألة السلام كانت كذبة، فهو لم يكن يهتم للسلام ما دامت امبراطوريته امنة، بل كان يسعى من خلال ذلك السيطرة على مقدرات البلدان من خلال اقناعها بأنه يسعى لنشر السلام فيها.

روما التي استولت على العالم وتحكمت فيه غيرت كل المفاهيم والقيم العليا التي أرساها الإغريق من قبل، فأعرف نفسك صارت اعرف خصمك، ولا تتطرف صارت غامر حتى تفوز، والصلاح مستحيل صارت الصلاح يفرض فرضاً بمشيئتك ما دمت قوياً. لقد تحول الحق إلى سلطة والجمال إلى منفعة والخير إلى استيلاء، بل إن الرومان كانوا يرون الخير في الحروب والتوسع والاستيلاء وإخضاع الغير[2]، لم تكن حقبة «**السلام الروماني**» (27 ق.م -180م) التي افتتحها أغسطس؛ حقبة سلام بأي حال من الأحوال، بل كانت مفهوماً رومانياً صُمم بروح أغسطس، بمعنى أنه لم تحدث خلال هذه الحقبة حروب أهلية كبرى، ولا شك أن السلام ساد هذه المدة في بعض جوانبها، لكن كونها حقبة سلام عامة أمرٌ يصعب تأكيده، يكفي أن نشير إلى حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية شهدت في عهد الإمبراطور تراجان[3] (98- 117م) أقصى اتساع لها نتاج حملاته العسكرية الطموحة والناجحة[4].

إن نظرة المستعمرين المنتصرين إلى سكان الأقاليم لم تتبدل عبر العصور، لقد كان «**السلام الروماني**» الذي أعلنه أغسطس لا يعني إلا الاستسلام لمشيئة روما، التي لم تنظر للشعوب الخاضعة لها كشعوب شريكة في الدولة أو مساهمةٍ في عظمة الإمبراطورية، بل كانت تنظر لهم كأعداء قهرتهم، فالضريبة لم تكن إلا الرصيد الذي يقدم إلى روما دون مقابل، وإن «**السلام الروماني**» يعني أن روما كانت سيدة اللعبة، وأن مؤسساتها وسلطتها تقود العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في هذه الإمبراطورية الكبيرة، هذه هي «**الرومنة**» التي أرادها أغسطس، وكانت تحرك مجال الاهتمام باتجاه الحقل الاجتماعي الثقافي، أي أنها كانت تهدف إلى تسليط الأضواء على العاصمة فقط، ما يشير إلى أهمية عظمة المركز والمسافة الفاصلة بين الثقافات الإقليمية بالنسبة إلى المعايير الرومانية[5]، وهكذا كانت روما في ظل هذا النظام الإمبراطوري-الرأسمالي مركزاً يعج بالحيوية والنشاط والازدهار، طبعا على حساب الولايات (المستعمرات) المغلوب على أمرها، فجميع الطرق تؤدي إلى روما، وبواسطتها كانت روما ترسل الأوامر والتعليمات، والبريد، والجيوش، والولاة الذي كان يتوجب عليهم اجبار سكان الولايات أن يدفعوا الضريبة المترتبة عليهم، وأن يرسلوا اليد

(1) حاطوم، نور الدين، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج1: حضارات العصور القديمة، (مطبعة الكمال، دمشق 1965م)، ص600، 601.

(2) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص6.

(3) تراجان: ماركوس اولبيوس ترايانوس ولد في احدى مدن اسبانيا عام 53م، وتولى حكم الامبراطورية الرومانية عام 98م حتى وفاته 117م.

(4) Hanssen, Romanization..., p.7.

(5) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص97.

العاملة الخبيرة في مختلف الاختصاصات إلى روما، وأن يزودوا العاصمة بكل ما تنتجه بلادهم من محاصيل زراعية وخامات معدنية ومختلف أشكل المواد المصنعة، فأجتمعت خيرات العالم في روما[1].

إن دفع الأمور لصالح المركز، وسياسية التمييز غير الرسمية بين رومان روما وسكان الأقاليم، سيولّد داخل أسوار روما شعباً متفوقاً على جميع أبناء الإمبراطورية بالامتيازات، ولقد ازدادت حدة سياسية التمييز هذه، ولعبت دوراً يختلف باختلاف المناسبات، والتقدير الذي يحمله الأباطرة لهذه العائلات المهمة أو تلك، فقد اعتبر الشاعر الروماني مارسيل أن مضاربة سكان الأقاليم كانت أحياناً بمثابة المس بحقوق اختص بها أبناء مدينة روما لا تتغير بمرور الزمن، والحصول على المعارف أو على ثقافات ذات قيمة لا يُصحح كلياً النواقص المتأتية عن وضع اجتماعي متدن ومعلن، فقد كان بأستطاعة المهندسين والفنانين والرسامين والفلاسفة والشعراء والبلغاء من أبناء الولايات إبراز مهاراتهم حتى في البلاط وأمام الإمبراطور شخصيا، أما طريق السلطة فلم تكن مفتوحة لهم[2].

إن بقاء مدينة روما، المدينة الأولى في الإمبراطورية، لم يحل دون تعرضها لتغيرات جذرية، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع الشرق الذي تغلبت عليه وفازت به، فالأخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الأبواب على مصرعيها أمام المؤثرات الشرقية، التي تجاوزت بكثير هذه المرة، وعلى نطاق أوسع، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية، لقد تنوعت هذه المؤثرات فشملت الدين والأخلاق والسياسة والمال والفلسفة والثقافة والفن والعمارة[3]، ولم يقف الإغريق مكتوفي الأيدي فقد عرف الفكر اليوناني طريقه إلى روما، وظهر فيها باحثون عن الحقيقة على الطريقة الإفلاطونية، ليس من الرؤى الجميلة للآلهة المتجسدة في الغابة والنهر والبحر، ولكن مما كان يجده الناس داخل أنفسهم[4]، ولما لحق الفساد بالأرومة الرومانية منذ زمن، بدا واضحاً أن زمنا سيأتي ستصبح فيه روما وكأنها ليست روما[5]، فروما العاصمة كانت تمثل نقطة الجذب الأولى لكفاءات العالم القديم، هي مقر عظماء رجال المال والأعمال، وقبلة أنظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم أحلام المجد والشهرة، وهكذا تلاقت في هذه المدينة جميع العناصر والأقوام والشعوب. ولما انشغل أبنائها الرومان بلهو الدنيا ومتاعها، كان لأبناء الولايات الشرقية حضورهم الأبرز في العاصمة، تسربوا منذ أمد طويل حتى وصلوا إلى حكومة الإمبراطورية وإدارتها، وبالتالي فلا عجب بعد هذا أن ينشد الشاعر الروماني مارسيل قائلاً «**منذ عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التيبر**» ومثل هذا الانصباب لم يبتدئ بالطبع مع الإمبراطورية، إلا أنه تضخم في عصرها بصورة لم يعد من الممكن السيطرة عليها، وبلغ الزبى بعد أن عمّ الرخاء وتشعبت الإدارة العامة وفروعها[6].

في كل العالم وفي كل عصر تكون المدينة الكبرى مكاناً للتناقضات، وقد كانت روما هكذا، فأثناء عصر الإمبراطورية تأرجح البندول أوسع وأوسع،

(1) حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة...، ج1، ص599.
(2) لورو، المصدر السابق، ص72.
(3) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص369.
(4) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص150.
(5) بابليون، إمبراطورات سوريات...، ص142.
(6) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص371.

وصار التطرف يحكم الحياة، ففي القمة استبداد مطلق وفي القاع عبيد يائسون، فالحياة رائعة والقذارة لا توصف، وأشكال وحشية من المتع غير المسؤولة والبؤس المخيف، ففي كل مكان ثمة تناقضات عنيفة[1]، فلا عجب أن يتوجس الأباطرة خوفاً، فعمدوا إلى طرد الفلاسفة، أو إرهاب المفكرين، أو إحراق الكتب، وقتل الفكر الحر المبدع الخلاق[2]، إذ لم يتورع نيرون[3] (54- 68م) عن طرد الفلاسفة من روما بعد أن خامره الشك في صدق ولائهم، وكذلك فعل الإمبراطور فسباسيان[4] (70- 79م) عندما اتهم أحد الفلاسفة بالامتناع عن أداء فرائض الولاء والطاعة للإمبراطور، فتم طرد الفلاسفة من روما سنة 71م[5]. إن توجس الأباطرة خوفاً من هذا التيار الجارف دفعهم ليعهدوا من حين إلى آخر إلى الشرطة بإخراج العناصر الطارئة وإقصائها بالجملة[6]. ولفهم الفكرة بصورة أوضح تجدر الإشارة إلى أن روما كانت كلما انتصرت على شعبٍ أرغمت قسماً منه على أن يرحل ويقيم في العاصمة، وبعد ذلك حل بها طوعاً بعض سكان المدن المجاورة رغبة منهم في التمتع بحق التصويت، وأخيراً قصدها الناس من مختلف الآفاق، وكان القانون الروماني يشجع على تزاوج السكان الرومان بالوافدين، وأحياناً يفرضه، وأثناء حروب روما المتصلة تجمع عدد هائل من الرقيق من كل الأصقاع، ثم اعتقوهم بدوافع مختلفة الكرم والبخل والعوز، وهكذا في عصر الإمبراطورية أصبح عوام روما كلهم من الموالي، فأخل النظام فيها، فتقرر إنشاء مستوطنات تأويهم وفي الوقت نفسه تضمن ولاء الأقاليم. وبذلك نشأت شبه دورة تستقدم روما سكان الأرض رقيقاً ثم بعد حين توفدهم مواطنين رومان[7].

ثالثاً: الرومنة الثقافية:

عندما اتصل الرومان باليونان أول الأمر[8]، أحسوا بعقدة النقص اتجاههم، وشعروا بأنهم بالنسبة إلى هؤلاء همج غلاظ؛ فقد كان اليونان متفوقين في نواح كثرية بدرجة لا تكاد تقع تحت الحصر والتقدير؛ متفوقين في الصناعة وفي فن الزراعة، متفوقين في أنواع المعرفة اللازمة للموظف

(1) هاملتون، المصدر السابق، ص ص156، 157.
(2) ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، ج2، مج3، ص160.
(3) نيرون: هو ابن الامبراطور جرمانيكوس، والابن بالتبني لكلاوديوس، تولى حكم روما وهو في السادسة عشر من عمره، وهو اخر اباطرة الاسرة اليوليوكلاوديان. البياتي، شهد رشاد ادهم، الامبراطور فسباسيان ودوره في الامبراطورية الرومانية(79-9م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الاداب، قسم التاريخ،2018م، ص16.
(4) فسباسيان: هو تيتوس فلافيوس قيصر فسبازيانوس اغسطس ولد عام 9 م شمال شرق روما ، وتولى الحكم بعد وفاة نيرون عام 69م حتى وفاته عام 79م. المصدر نفسه، ص ص 7-6.
(5) برهييه، اميل، تاريخ الفلسفة، ج2، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ط2، تر: جورج طرابيشي، (دار الطليعة، بيروت1987م)، ص 203.
(6) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص371.
(7) مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، تر: عبد الله العروي، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2011م)، ص ص125 ، 126.
(8) بدأت العلاقة بين الجانبين بعد اتصال روما المباشر باليونان في منطقة جنوب ايطاليا فيما يسمى بالمستعمرات الاغريقية (اليونان الكبرى) ، وتحديداً في القرن الثالث قبل الميلاد.
Walbank, F.W., The Hellenistic world and the coming of rome,(Cambridge University press,1981),p.181.

الممتاز، متفوقين في الحديث وفي فن التمتع بالحياة، متفوقين في الفن والأدب والفلسفة، ولم يكن الرومان ليتفقوا على الإغريق إلا في فنون الحرب والتماسك الاجتماعي[1]. لقد ارتبط الأدب الروماني في مختلف عصوره بصورة وثيقة بالحياة الأدبية والفكرية الإغريقية، حتى أن ولادته الحقيقية كانت مرهونة بقدوم أسير إغريقي من مدينة تارنت الإغريقية هو ليفيوس أندرونيكوس Livius Andronikos (اسمه الأول روماني واسمه الأصلي إغريقي) إلى مدينة روما، وتكليفه سنة (240م) بترجمة إحدى المسرحيات الكوميدية الإغريقية إلى اللغة اللاتينية، لتعرض في مهرجان الألعاب الرومانية (Ludi Romani)، ثم قام بترجمة ملحمة الأوديسة للشاعر الكبير هوميروس وأصبح بذلك مؤسس الأدب الروماني. وهي أبكر قطعة أدبية نعرفها عند الرومان[2].

إن ترجمة الأوديسة في نهاية الحرب البونية الأولى[3]، إي بعدما يقارب 500 سنة من تأسيس روما، دليل أكيد على أن الرومان لم يشعروا طيلة هذه القرون إلا بدافع ضعيف للتعبير الفني[4]، ولقد كان ذلك أول اتصال أدبي روماني بالثقافة والأدب الإغريقي، والذي سيزداد ويتعمق على مر السنين القادمة، ويشمل ليس فقط الشعر المسرحي والملحمي، وإنما كل الأجناس الأدبية الأخرى ومختلف فروع الثقافة والإنتاج الفكري والعلمي[5].

لقد اندفع الشبان الرومان وغالوا في إعجابهم بالإغريق بصورة واضحة بعد الحروب البونية، فتعلموا اللغة اليونانية، وقلدوا العمارة اليونانية، واستخدموا نحاتين من اليونان، وطابقوا بين آلهة الرومان وآلهة اليونان، وانتحلوا للرومان أصلا طروادياً ليربطوا العلاقة بينهم وبني الأساطير الهومرية، واصطنع الشعراء اللاتين بحور الشعر اليوناني، واستعار الفلاسفة اللاتين نظريات يونانية. وهكذا لبثت روما معتمدةً كل الاعتماد من الناحية الثقافية على الإغريق، فلم يبتكر الرومان في الفن قوالب خاصةً بهم، ولا أقاموا في الفلسفة نظريات من إبداعهم، ولا كشفوا في العلم عن شيءٍ جديد. نعم إنهم قد مهدوا طرقا جيدة، وشرعوا قوانين متسقة أجزاؤها، وأعدوا جيوشا قديرة على القتال، أما فيما عدا ذلك فقد أداروا أبصارهم نحو اليونان[6]. ويعترف الشاعر الروماني هوراس (الذي عاش في عصر الإمبراطورية) في بيت مشهور له بفضل الإغريق فيقول: «**لقد أسرت الآن إغريقيا المهزومة آسريها الشرسين بفكرها وحضارتها، وجلبت الثقافة الرفيعة إلى لاتيوم الفلاحة**»[7].

بينما يستدعي وضع النخب في الحواضر اليونانية مزيداً من التفكير؛ فقد فعلت روما فعل الآفة الفتَّاكة بجزء الإمبراطورية الذي يتكلم اليونانية؛ إذ تدهور فيها الفكر والفن على السواء، ورغم أن الحياة فيها استمرت حتى نهاية القرن الثاني للميلاد ممتعة هيِّنة بالنسبة للأثرياء؛ إذ لم يكن ثَمة ما يحفز

(1) رسل، تاريخ الفلسفة الغربية...، ص361.
(2) الزين، الكتابة والتدوين عند الرومان...، ص32.
(3) الحرب البونية الاولى: عرفت هذه الحرب بعدة تسميات منها الحرب البونيقية، والحرب الفينيقية، وهي الحرب التي وقعت بين روما وقرطاجة ، قسمت على 3 مراحل بين مهزوم ومنتصر وانتهت عام 146ق.م بأنتصار روما وحرق قرطاجة بالكامل، فأصبحت بعد ذلك ولاية رومانية. للمزيد ينظر:
Scullard ,H.H.A, History of the Roman world:753-146B.C,(Routledege,1980),p.306.
(4)) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص18.
(5) الزين، الكتابة والتدوين عند الرومان...، ص32.
(6) رسل، تاريخ الفلسفة الغربية...، ص361.
(7) الزين، المصدر السابق، ص34.

على الإجهاد في العمل[1]، إلا أنه أمسى جلياً أن اليونان قد ظلوا يونان وظلوا يكرهون الأجانب كونهم يتمتعون بامتياز الأقدمية، وكانوا يحبون فرض أنفسهم كأصحاب ثقافة ذات صبغة ماهوية.

أيا يكن الأمر فلا يمكن تحاشي الفخاخ التي نصبها المثقفون اليونان، لاسيما أصحاب المخاوف على كونية ثقافتهم، لم يتوافق اليونان على مواقف يدافعون عنها، لكنهم كانوا جميعاً يعتقدون أنهم من المؤتمنين على هبة لا يمكن محوها، **وهي المدينة**، إنها الطريقة الوحيدة التي يستحقون الوطن بها، جماعة حرة تكتفي بذاتها[2]. لقد كانت روما مدركة لتلك الأفكار والتصورات وبناء عليه كانت أكثر حذراً في تعاملها مع الإغريق، إذ تركت لليونان وهم الحرية الكاملة، سواء بإعطائهم تشريعاً يوحي بحرية الحاضرة، أو سواء بأحترام إرادة المدن بالبقاء مدناً حرة (أي ليست لاتينية ولا رومانية). فالاستقلالية المحلية كانت قديمة فيها، وكانت الجماعات تنعم بالمؤسسات كما أنها كانت تضم النخبة اللازمة لأداء عملها بشكل جيد.

إن تجربة القيادة السياسية والتقدير العالي للثقافة اليونانية، وكون روما قد اعتبرت نفسها وريثة الحضارة الهيلينستية؛ كانتا المعادل للتحفظات والشكوك بل وللاحتقار الذي يشعر به المسؤولون الرومان تجاه من يعتبرونهم أقل جدارة بلعب دور الجدود القدامى المجيد. لم تكن آسيا إطلاقاً اليونان القديمة، ومع ذلك فقد عَرفت العديد من الحواضر في الأناضول ديمومة جيدة، ترافقت مع ازدهار بعضها بشكل فيه الكثير من الغطرسة. أبدت السلطة الرومانية حرصها على ردود الفعل وعلى اهتمامات هؤلاء الأعيان الجاهزين للمطالبة بأعتراف ما، أو بمساعدة أو بحظوة معينة[3].

لقد دخلت بلاد اليونان تحت قيادة رومانية، لكن أثينا لم تسمح أبداً بالمجالدة، وقد أوقف اليونان القتال مرتين قبل أن يبدأ، وفي كل مرة كان الاعتراض يصدر من رجل عظيم؛ صاح رجل منهم يا سكان أثينا قبل أن تسمحوا للمجالدين بالاقتتال، تعالوا معي ندمر مذبح آلهة الشفقة، فأعلن الشعب بصوت واحد أنهم لا يريدون لمسرحهم أن يدنس، وفي المرة الثانية أدان فلسوف مبجل ومحترم القسوة التي ستعرض عليهم، وكانت النتيجة في المرة الثانية كالأولى حيث تم إلغاء العرض، لكن في كل مكان في روما وخارجها تابعت العروض والألعاب الدموية مسيرتها، في كل مرة كانت تزداد دموية وقسوة، حتى إن مئة أسد وكثيراً من اللبوات قد أزهقت حيواتها، وفي مناسبة أخرى قتل خمسمئة حيوان من ثيران ونمور وفهود وفيلة، هذا ولا يمكن حساب عدد الأروح البشرية التي لاقت حتفها بهذه الطريقة؛ إن المخزون من أسرى الحرب لا يكفي لهذه التسلية المقيتة، فكان الرجال الذين حكموا بالإعدام يرسلون لملء مدارس المجالدين[4].

إنما تقدم يشرح لنا ما أعاق عملية دمج العواطف والتقاليد في شكل متماسك محدد في عملية «**الرومنة**»، في الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، فثقافة المغلوبين أرقى من ثقافة الغالبين، حيث تجلّت الثقافة الهيلينية بطريقة جعلت السكان، رغم تسميتهم أنفسهم رومانيين في النهاية، ألا يتبنوا اللغة والثقافة الرومانيتين بالكامل، بينما في شمال غرب أوروبا، حيث لم تكن هناك ثقافة عرقية أو

(1) رسل، المصدر السابق، ص360.
(2) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص99.
(3) المصدر نفسه ص85، 86.
(4) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص ص172، 173.

قديمة واسعة تُميّز السكان الأصليين عن الرومان، كانت الرومنة سهلة الانتشار[1]. في الواقع لا يقتصر الأمر على معتنقي الثقافة الهيلينية العريقة أو معتنقي الثقافة اللاتينية الجديدة، لقد كانت الشعوب التي دخلت تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بالمئات، وقد استطاعت الإمبراطورية شيئا فشيئا امتصاص مساحات ثقافية إقليمية، لم تكن الهيلينية إلا العنصر الواضح فيها، لأنها كانت الأكثر انتشاراً، لاسيما في الولايات الشرقية. لقد كان الرومان مدركين أمرا مهما هو أن الإغريق والسلتيين[2] وسكان إفريقيا ومصر وسوريا يمتلكون إرثا جليلاً من التقاليد التي يتوجب احترامها، بما لا يتناقض مع التأكيد على التفوق الروماني الذي يشعر به المنتصر حتى لو تضمن احتقاراً للغير[3].

أما في الغرب كان الوضع مختلفا تماماً، فقد لعبت روما دوراً غاية في الأهمية لتوسيع نطاق المدينة هناك، فقد انتقلت المدنية إلى شمال إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وبعض أجزاء من ألمانيا الغربية، بفضل غزو هذه الأراضي عنوةً على أيدي فيالق من الرومان[4]. ومن النقوش التي أقيمت في الولايات الغربية، ومن كتابات المؤرخين الكلاسيكيين، بدا واضحاً تقبل سكان هذه الولايات لمفهوم الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي؛ إذ اقتنعت الطبقات العليا فيها بالأحوال السائدة ورضائها شيئا فشيئا[5].

في الواقع لقد تمّت عملية تهدئة بلاد الغال وضمّها إلى الإمبراطورية الرومانية، بالاعتماد بصورة أساسية على التنظيم الجماعي القائم على الكانتونات القائمة، والاستخدام الإلزامي للغة اللاتينية في المجالات الرسمية، وقمع التمرد، وفرض القيود على التجارة، ومنح الامتيازات والمواطنة الرومانية في نهاية المطاف، ثم برهنت هذه المناطق كلها على أنها لا تقل عن روما نفسها قدرة على استيعاب مستوى عال من الثقافة. يصف لنا المؤرخون العملية بأنها عملية دمج، أي دمج عنصرين أو أكثر في عنصر واحد، ويُشيرون إلى أن التنظيم الكانتوني غطّى الأنماط القبلية القائمة في بلاد الغال بدلًا من طمسها، وأن الديانة السلتية، على الأقل في البداية، سُمح لها بالازدهار، وإن كان هناك بعض الفروق الجغرافية فيما يتعلق بمناطق نجاح انتشار «اللاتينية»، ويُميّز المؤرخون بين الجنوب الذي كان سهلًا في رومنته حيث سيطرت روما منذ العصر الجمهوري، والشمال الشرقي والغرب، من بين المنطقتين الأخيرتين، تُرك الشمال الشرقي، الموصوف بأنه ذو طابع جرماني إلى حد كبير، أكثر انفتاحًا على العادات الرومانية، إذ ضمّ هذا الجزء جيش الراين الكبير القائم بكل ما استلزمه ذلك من مستوطنات مدنية، وتجارة واسعة، وتجار حرفيين، وتجنيد محلي. وتجدر لإشارة إلى أن الرومنة لم تطبق فجأة، بل طُبّقت بحذر وصبر، ولم يعد الحكم الروماني الأجنبي في الأراضي الكلتية كذلك لأن الكلت (قبائل همجية بربرية عاشوا بالقرب من الاراضي الروومانية) أنفسهم أصبحوا رومانًا ورغبوا في ذلك[6].

(1) Hanssen, Romanization…, p.12.

(2)) السلتيين: شعوب هندو اوربية ظهرت خلال الالف الاول قبل الميلاد متخذة من اوربا الوسطى والغربية مركزا لها . يوليوس قيصر، حروب الغال، تر: محمد حمدي ابراهيم، (دار المعارف، القاهرة، 1990م)، ص 87.

(3)) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص61.

(4)) رسل، تاريخ الفلسفة الغربية...، ص366.

(5) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية...، ص184.

(6) Hanssen, Romanization…, p.7.

كانت هناك هويات جديدة تتشكل؛ صحيح أن الممارسات قد دفعت باتجاه أن يصبح المرء رومانيا، وليس غاليا -رومانيا، أو إسبانيا - رومانيا، أو حتى يونانيا -رومانيا، إن الشعور بالانتماء المزدوج كان إشارة تحول أو انتقال، وليس دليلا على هوية ثابتة لم يعلن عنها بوضوح إطلاقا. بكل الأحوال لم يكن في وسع أي كان البقاء محايدا اتجاه هذه الحركة الواسعة، وهذا ما يفسر تحولات وتعبيرات التجدد[1]، ففي المناطق الشمالية الشرقية من ألمانيا، التي كان التأثير الروماني فيها أعمق أثراً وأقوى حضوراً، نتجت ثقافة مختلطة بفعل القوميتين، ولم يُظهر مثيل لها في ألمانيا الرومانية، هذه المناطق حملت سمات ثقافية رومانية-غالية لأنها كانت في الأصل سلتية. وقد أُعيد توطين الألمان هنا؛ علاوةً على ذلك، أُعيد توطين السلتيين في المناطق الحدودية عبر نهر الراين، مما عزز العناصر الرومانية-الغالية، لقد تكيفت هذه المنطقة بسهولة أكبر مع العادات الرومانية، أولا بفضل الانتشار الكثيف للمنشآت العسكرية الرومانية فيها، ثانيا لافتقارها إلى مراكز مجتمعية كتلك الموجودة في بلاد الغال. اليوم وفي ضوء الدراسات الأثرية تُظهر المواد المكتشفة من مواقع في كل من جرمانيا السفلى وجرمانيا العليا أنه إلى جانب وجود العديد من السمات الغالية في النشاط الزراعي وإنتاج الخزف، استمرت التقاليد المحلية أو تكيفت مع نمط الحياة الإقليمي الجديد. إذ تُشير الاختلافات المحلية في طقوس الدفن، كما هو الحال في قبور البوستا في أسيبورغيوم، وفي تصميم الفيلات الألمانية والتعبيرات الدينية الجديدة؛ مثل أعمدة جوبيتر، إلى أن الصورة الثقافية كانت معقدة وتضمنت سمات «رومانية» و«غالية» و«ألمانية»[2]. حتى الذين صاروا «رومانيين»؛ هم لم يفعلوا ذلك إلا على طريقتهم، إذ لا نموذج خاص بذلك يسمح بإصدار شهادة على التحول إلى الحضارة الرومانية. فالاندماج السياسي والقضائي يعني الإقرار من حيث المبدأ بتطور وصل إلى نهايته هو في طور الاكتمال. إن أنماط الاستهلاك، وطرق اللباس وتبني لغة أخرى، لم يكن يعني التخلي عن تقاليد وعن طرق تفكير موروثة، لها طابعها الثقافي. بل إن التعلق باللغة الأم وبالثقافة السائدة لا يعني رفض كل ما تقدم، ولا التخلي عنه[3].

لقد رفض المصريون الثقافة الرومانية وحافظوا على التقاليد المصرية القديمة، حتى إن مصر كانت أرضاً منفصلة أو ربما جزءاً غريباً وبعيداً من الإمبراطورية، ربما أكثر غرابة من أي إقليم آخر، حيث استمر ازدهار الثقافة المصرية القديمة، وكان زائر مصر الرومانية ليجد نفسه في حقبة زمنية أقدم. في الواقع إن الطبيعة المميزة لمصر جعلتها بعيدة جداً عن بقية الإمبراطورية، ويجمع المؤرخون إلى وجود شعور بالعداء في مصر تجاه روما، وإن كانت الولاية تبدو مستقرة مقارنةً بمكان آخر كما في اليهودية أو بلاد الغال (اسبانيا)[4]، وهذا الشعور نابع من سياسة عدم إشراك المصريين في إدارة بلادهم، وحرمانهم من التطوع في الجيش؛ طريق المواطنة الرومانية، وفرض الهيمنة وتكريس صورة روما المنتصرة بطريقة مبالغ فيها، من خلال العملات النقدية، والنقوش، والأنصاب والتماثيل، التي تمجد فكتوريا Victoria إلهة النصر عند الرومان. هذا

(1) باتريك لورو، الإمبراطورية الرومانية، ص99.

(2) Hanssen, A. B., Op. Cit., pp.7, 8.

(3)) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص99.

(4) Hardy, Th. A., Gods, Armies, and Tax Collectors: Cultural Connection in Roman Egypt., Illinois University., p.1.

بالإضافة إلى الرموز العسكرية الرومانية الأخرى كتصوير العربات الحربية، أو معبد الإله مارس Mars إله الحرب عند الرومان، أو نبات الغار، أو أقواس النصر، أو مشاهد من أعمال انتقامية قام بها الجيش الروماني[1]، لقد كانت تلك الرموز جزء من الهوية البصرية الرومانية، لكنها عرضت في مصر بأسلوب منفر. إن مقياس الرومنة واندماج مصر في النظام الروماني مسألة معقدة؛ تعتمد على العديد من المقاييس المستخدمة في البنية التحتية: كإعادة بناء المدن على الطراز الروماني، والطرق، وشبكات التجارة. ويمكن لنا أن نستقي منها عدة إشارات عن طبيعة المقاطعة في الإمبراطورية الأكبر[2]؛ إن المؤشرات العامة تشير أن سياسة رومانية عميقة وضعت من قبل أغسطس لا تهدف إلى دمج مصر ثقافيا بالإمبراطورية، فبدل أن ينشر أغسطس معسكرات الجيش الروماني في الدلتا ووادي النيل، عمد إلى أسكان الجنود في حصون رومانية praesidia، تم بنائها في مناطق معزولة ذات أرض وعرة ومناخ قاسي كالصحراء الشرقية، أي بعيدا عن المراكز السكنية الأساسية في مصر[3]. لقد كانت المدن الكبرى مثل الإسكندرية وطيبة، أمثلة جيدة على أهمية مصر في العصر الروماني، حيث كانت الإسكندرية مركزاً للتجارة والثقافة[4]، وليس بالضرورة أن ينطبق هذا القول على الطبقات الدنيا، فما حدث من اضطرابات في الإسكندرية في عهد تراجان، ينم على أن عدم الوئام الاجتماعي الذي أشرنا له لم تختلف وطأته أبدا في مصر أو حتى في آسيا الصغرى، إذ لم يكن من اليسير على الحكومة الرومانية وحكام المدن أن يكبحوا جماح الطبقات الدنيا من سكان المدن، عموما كانت مصر في نظر الرومان إهراء قمح يجب الحفاظ عليه[5].

لم تكن هذه السياسة مقتصرة على مصر، بل هي سياسة أصيلة في منهج روما في التعامل مع ولاياتها، وهذا المنهج يتجلى في القانون الاجتماعي الذي سجل هوة فارقة بين سكان المدن والأرياف؛ فعالم الريف الذي يشكل ما بين 70 – 80 ٪ من السكان كان يعتبر عالماً فضاً بربرياً جاهلاً ولا متوقعاً. أما المدينة فكانت إطار الحياة المتمدنة والتربية وحلاوة العيش، لم تكن المسألة مسألة مكان، فالريف في نظر الرومان كان مكانا للراحة واللهو فقط، وكانت الارستقراطية ترى أن حياة وعمل الفلاح الصعب يعتبر عملا يناسب العبد. والتكامل بين المدينة والريف كان من الطبيعي أن يتناسب ونمط حياة الملاكين الكبار للأراضي[6].

ربما أن مصر أظهرت رومنة من نوع آخر يتناسب مع طبيعتها الدينية، إذ يمكن أن يكون الدين وسيلة فعّالة للسيطرة على السكان لقرون، ويُنشئ صلة بين المواطن والدولة. ولم تكن مصر الرومانية استثناءً في هذا الصدد، إذ استخدمت ديانة الدولة الوثنية لخلق رابط بين الإمبراطورية والشعب المصري، في الواقع كان هناك استمرارية في التقاليد الفرعونية القديمة

(1) Gruen, E. S, The Augustan Empire 43 B.C – 69 A.D., The Cambridge Ancient History., Vol X; The expansion of the empire Under Augustus; Egypt Ethiopia and Arabia., Chapter 4; Cambridge University Press 1996, p.192.

(2) Hardy, Th. A., Op. Cit., p.1.

(3) Wiseman, R., On the back of the army: *A comparative study of Romanization in Britain and Egypt*, A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the Master of Arts in History., University of Nevada, Las Vegas, December 2011, p.66.

(4) Hardy,Gods…, p.1.

(5) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية...، ص185.

(6) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص72.

في نـواحٍ عديـدة، وكان أهمهـا التـي تـرى في الملـك إلهـا، ويبـدو أن الأباطـرة الرومـان قـد أدركـوا تلـك الحقيقـة جيـدا؛ فمثلهـم مثـل العديـد مـن الفراعنـة الذيـن سـبقوهم، لم يُوقـف الأباطـرة الرومـان عمليـة تأليـه الأباطـرة، ويُعـدّ أباطـرة مثـل أغسـطس ورجـال مثـل قيـصر أمثلـةً عـلى ذلـك[1]. والأمـر لم يقتـصر عـلى مـصر دون غيرهـا فلـما زار أغسـطس آسـيا الصغـرى وبـلاد اليونـان في سـنة 21 – 19 ق.م، اسـتقبل فيهـا عـلى أنـه إلـه حـي، حيـث وجـد عبادتـه قـد انتـشرت فيهـا انتشـارا سريعـا؛ وكانـت النـذور تقـدم إليـه، والخطـب ترحـب بـه بوصفـه (المنقـذ)، و(ناقـل الأنبـاء السـارة)، و(الإلـه ابـن الإلـه)؛ أي أنـه الإلـه المنقـذ ابـن الإلـه يوليـوس قيـصر، حتـى شـبهه بعضهـم أنـه المسـيح الـذي طـال انتظـاره؛ أقبـل يحمـل السـلام والسـعادة لبنـي البـشر، لا بـل إن مجالـس الولايـات الكـبرى جَعَلـت عبادتـه المحـور الـذي تـدور عليـه احتفالاتهـا، وعينـت مجالـس الولايـات والبلديـات طائفـة جديـدة مـن الكهنـة يدعـون بالأغسطسـيين[2].

أمـا في سـوريا كان هنـاك ثـلاث مراكـز لعبـادة الإمبراطـور في أنطاكيـة وصـور وطرسـوس[3]، وكانت إدارتهـا في العاصمـة أنطاكيـا، وكانـت تماثيـل أغسـطس معروضـة في معابـد الإلـه زيـوس[4] والإلـه حـدد[5] والربـة أرتميـس[6] في مدينـة دوراً أوروبـوس السـورية عـلى ضفـة نهـر الفـرات. كـما وجـد معبـد مخصـص لعبـادة الإمبراطـور في مدينـة تدمـر في قلـب الباديـة السـورية، ومـا أكـد ذلـك هـو نصـان عثـر عليهـما في المدينـة المذكـورة[7]، وقـد اسـتغلت رومـا سـيطرتها عـلى تدمـر، واسـتغلت نشـاط التجـار التدمريـين في بـلاد الرافديـن، وعمـدت للاسـتفادة مـن هـؤلاء التجـار في نـشر عقيـدة تأليـه الأباطـرة، لاسـيما خـلال مـدة نزاعهـا مـع الإمبراطوريـة الفارسـية، وتتجـلى هـذه السياسـة في إنشـاء معبـد للأغسطسـيين في فولوكسـيا في جنـوب بـلاد الرافديـن؛ إذ يظهـر معبـد لأهـم العبـادات الرومانيـة الحكوميـة عـلى الإطـلاق[8]. وبالعـودة إلى مـصر أصبحـت عبـادة الإمبراطـور أكثـر انتشـارًا فيهـا، ممـا يُشـير إلى اسـتمرارية بـين مـصر الفرعونيـة ومـصر الرومانيـة. إن عمـق هـذه العقيـدة في المجتمـع المـصري يطـرح سـؤالا فيـما إذا كانـت اسـتراتيجيةً لاسـتيعاب الثقافـة المصريـة أو مـدى كونـه معتقـدًا رومانيًـا حقيقيًـا؟ إن الاجابـة لا زالـت محـلّ جـدل؛ ومـع ذلـك يتضـح مـن الأيقونـات والطقـوس الدينيـة أن هـؤلاء الأباطـرة كانـوا يُعبَـدون، وكانـت المعابـد، المُكرّسـة بصـور الأباطـرة الرومـان وهـم يرتـدون ملابـس الفراعنـة ويـؤدون شـعائر فراعنـة عـصر الأسرات شـائعة، في الواقـع لم يكـن ارتبـاط الإمبراطـور، رئيـس

(1) (Hardy, Th. A., Op. Cit., p.3.

(2) ديورانـت، قصـة الحضـارة، قيـصر والمسـيح، ج2، مـج3، ص36.

(3) انتـشرت عبـادة الاباطـرة في سـوريا ، وفي هـذه المناطـق بالـذات وذلـك لان هـذه المناطـق كانـت مسـاعدة عـلى انتشـار المؤثـرات اكثـر مـن غيرهـا كونهـا مناطـق سـاحلية تجاريـة يسـهل الوصـول اليهـا اكثـر مـن المناطـق الداخليـة.

(4) زيـوس: كبـير الهـة الاغريـق، الـه الرعـد والسـماء، حاكـم جبـال الاولمـب. هاملتـون، معجـم الاسـاطير...،ص33.

(5) حـدد: الـه العاصفـة والرعـد والزوابـع في الميثولوجيـا السـورية.

(6) ارتميـس: الهـة الصيـد والعفـة والقمـر، وهـي مـن اشـهر الالهـات الاغريقيـات، فهـي شـقيقة ابولـو وابنـة زيـوس. The Oxford classical dictionary…,2012,p.7.

(7) النعـمات، رمـزي، الطقـوس الجنائزيـة الوثنيـة في سـورية خـلال الحكـم الرومـاني (64 ق.م – 325م)، رسـالة مقدمـة لنيـل درجـة الماجسـتير في التاريـخ القديـم، جامعـة دمشـق 2017م، ص ص91، 92.

(8) شـيفمان، المجتمـع السـوري في عـصر البرينسـيبات، مـن القـرن 3-1م، تـر: حسـان إسـحق، (دمشـق 1987م)، ص94.

الحكومة، بدين مصر جزءًا لا يتجزأ من الثقافة المصرية فحسب، بل منح الرومان أيضًا سبيلًا لإضفاء الشرعية على حكمهم في مصر[1].

رابعاً: دور الجيش في الرومنة:

لم يقتصر دور «**السلام الروماني**» في حمل الخير الكثير للمدنيّة الرومانية خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين من خلال تجنيب البلاد مآسي الحروب والقتال، بل إنه أسهم في تطور هذه المدنيّة، من حيث المفهوم والمنهاج المرسوم لها، فزاد من سحر وإغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها جذب الناس من سكان الولايات الرومانية نحو المُثل الرومانية، لاسيما أن ثكنات الجيش الروماني كانت كلها منتشرة على حدود الولايات، وإعمارها كان بعثاً للحياة من نشاط وحركة في تلك المناطق النائية، وذلك عن طريق إحياء موات الأرض وإعمارها وحرثها، وتشجيع الإنتاج وتنشيط مرافق التجارة فيها، وبناء الطرق والمدن وتثبيت السكان في المدن والأرياف النائية، وإنشاء المصانع والمعامل في نواحيها، ثم إنشاء شبكة مواصلات متنظمة الحلقات بين الحدود النائية وقلب الولايات الرومانية[2].

إن معرفة أدوات الرومنة -الرسمية وغير الرسمية على حد سواء- يسهل فهم أساليب روما في نشر ثقافتها بين الشعوب التي أخضعتها، إن الأدوات الرئيسية للرومنة هي إنشاء مستعمرات المحاربين القدامى في الأراضي المحتلة حديثًا، والحصون العسكرية، بالإضافة إلى الطرق الرومانية، وعن طريق هذه العناصر العسكرية الثلاث: الحامية الرومانية، المستعمرات الرومانية، الطرق الرومانية تم نشر الرومنة بسهولة ويُسر[3]. لم يكن الوجود الروماني مسألة قاصرة على **بناء حصون** في مناطق معزولة، وإنما كان على عكس ذلك، فالتفاعل بين الجنود الرومان والسكان المحليين يبدأ من إنشاء الحصن العسكري في الريف، بحكم ما يتطلبه من تواصل ما بين الجنود والسكان من أجل توفير مواد البناء، كما إن إنشاء الحصون العسكرية -بأي حال من الأحوال- مدعاة لاختلاط الجنود بسكان الأرياف من أجل توفير طلبات المعيشة للجنود الرومان، بينما بقي نمط بناء الحصون الرومانية والمقابر؛ رومانية الطابع، ما أسهم في نمط معماري جديد في كل ولاية[4].

لا يقتصر التفاعل بين الجنود الرومان وسكان المنطقة على مرحلة ما قبل بناء الحصن، من قضاء حاجيات الجنود؛ من مواد البناء وأساسيات الحياة، فما أن تستقر الوحدات العسكرية، بعد تأمين الحدود وبناء الحصون الدائمة، تبدأ العلاقة بينها وبين المدنيين بالتطور والتوسع، فيبدأ الجنود بتكوين علاقات مع النساء المحليات، وبالتبادل التجاري مع السكان المقيمين، وبزراعة الأرض وإنشاء المزارع قرب الحصون أو المعاقل، ومن جانبهم يبادر المدنيون للاستفادة من رواتب الجنود التي ينفقونها نقدا لتلبية حاجاتهم، ونتيجة لذلك تبنى البلدات حول الحصون الرومانية خلال فترة قصيرة[5]. فمن المؤكد أن جنود الحامية المصرية لم

(1) Hardy, Gods…., p.3.

(2) إيمار، وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام...، ج2، ص389.

(3) Hanssen, Romanization…, p.12.

(4) Bruin, *Border Communities at the Edge*…, p.8.

(5) العمر، بديع، الجيش الروماني البري في الفترة الإمبراطورية 31 ق.م - 284م، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق 2010م، ص453، 454.

يهبوا الحياة العسكرية كل وقتهم، وأنهم بالتدريج امتزجوا ببيئة الحياة المحيطة بهم، ولعل الواجب العسكري لم يحتل المكان الأول من اهتمامهم، ويبدو أن هذا الحال لم تكن قاصرة على الجيش الروماني في مصر، فإن ظروف السلام والاستقرار النسبي التي سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية في القرنين الأول والثاني شجعت الجنود الرومان في مختلف الولايات على الخوض في مختلف أوجه النشاط السلمي في البيئات والمجتمعات التي وجدوا أنفسهم فيها[1].

وفي المقابل عملت المواقع العسكرية الرومانية كقوة جذب للسكان المدنيين، إذ جذبت التجار وغيرهم من أصحاب المهن ليؤمنوا احتياجات الجنود بكميات أكبر ونوعيات أفضل من تلك التي تتمتع بها مؤن الجيش، وكذلك الشراب والنساء ووسائل الترفيه، وما يتبع ذلك من وسائل اختلاط الجيش بالسكان المحليين[2]. وتجدر الإشارة إن عدد كبيرا من المعسكرات أو الحصون الرومانية تطور إلى مستعمرات بالمعنى الدقيق للكلمة، وإن دراسة المعسكرات الرومانية مهم، لأن تنظيم المعسكر يزودنا بمعلومات مهمة عن كيفية تنظيم المدن، لأن المعسكرات كانت صورة مصغرة عن المدن الرومانية، وقد تحول عدد منها إلى مدن كما هو الحال في مدينة الرقة على ضفة الفرات، والرصافة Allinicus قرب الخابور على أطراف البادية السورية[3].

ولم يكن الرومان ليبنوا الحصون والمعسكرات والمدن على أطراف الإمبراطورية هكذا مقطوعة، بل إنهم ربطوا فيما بينها بشبكة من الطرق السريعة، لقد كان الرومان من أكثر الشعوب القديمة اهتماما **بالمواصلات** إدراكا لأهميتها الاستراتيجية والعسكرية، واسهامها في تأمين سرعة تنقلات الجيش، وإرسال البريد السريع، وبالتالي إحكام السيطرة على أقاليم الإمبراطورية والدفاع عنها. لذلك قاموا بإنشاء شبكة هائلة من الطرق وصلت في عهد الإمبراطور تراجان إلى ثمانين ألف كم، غطت سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف. كانت الطرقات الرومانية تتبع التوسعات العسكرية، وهي شاهد على الاستيطان المنظم، وإقامة المستعمرات الرومانية، التي أدت إلى **رومنة** العديد من ولايات الإمبراطورية[4].

وسرعان ما وجد العنصر البشري هذه المناطق النائية على أطراف الإمبراطورية الرومانية في **الجندية الرومانية**، فرصة حقيقية للعيش الكريم، وبالتالي أقبل شبان هذه المناطق النائية على التطوع في الوحدات المساعدة للجيش الروماني، لقد كان الجيش الروماني المنتشر على أطراف الإمبراطورية الرومانية بحاجة إلى هذا العنصر البشري، من أبناء المنطقة، وما امتازوا به من خشونة الطباع وشدة المراس وميلهم الشديد للمغامرة، كان من الممكن أن يتحول هذا العنصر البشري في هذه المناطق النائية إلى عنصر شغب وإزعاج. إلا أن فتح باب التطوع لهم مد الجيش بعنصر قوة جديد، لاسيما بعد أن خضعوا للانضباط الروماني، وتأثروا به وعاشوا في ثكناته وآمنوا بالمثل والقيم الأخلاق الرومانية،

(1) العبادي، مصطفى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية، (دار المعرفة الجامعية، القاهرة 1999م)، ص163.

(2) العمر، المصدر السابق، ص454.

(3) الخطيب، مأمون، الطرق الرومانية في سورية، دراسة تاريخية أثرية (64 ق.م- 330م) رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، د.ت.ص119.

(4) الزين، محمد، الآثار الرومانية، (منشورات جامعة دمشق، دمشق 1991م)، ص142.

وتطبعوا بطباع الرومان، وأخذوا أعرافهم، وتبنوا لغتهم ولسانهم، تباهوا وتفاخروا بما تم لها من صيرورة ومصير، وبما عادت خدماتهم الطويلة في الجيش، من جعلهم على قدم المساواة مع الرومان أنفسهم. فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له، وبالعمل الذي حققه في القرنين الأول والثاني الميلاديين هو أداة طيعة فعالة لرومنة هذا القسم الواقع على أطراف العالم الروماني[1].

كان أفراد الوحدات المساعدة بعد خدمة 25 سنة يسرحون من الجيش، وكانوا في الغالب من سكان الأرياف، تطوعوا فيها من أجل الحصول على حقوق المواطنة الرومانية، وبعد أن عادوا إلى بلداتهم وقراهم، لعبوا دور الوسيط الثقافي ما بين الثقافة الرومانية التي تعرفوا عليها في الجيش الروماني، وبين سكان مناطقهم من الريفيين، فأصبحوا يأكلون ويلبسون وينامون وفق القواعد والأصول الرومانية، التي تدربوا عليها وألفوها في ثكناتهم العسكرية، والبعض منهم تعلم الكتابة اللاتينية، ولما كان الجنود يكتبون لأهلهم الرسائل باللغة اللاتينية، فإن هذا كان مدعاة لأن يهتم الأهالي بتعلم لغة الرسائل هذه، لاسيما أن علماء الآثار وجدوا في الحصون الرومانية في الأرياف التي خدموا فيها الجنود المحابر وصناديق الختم[2]. هؤلاء هم الفئة الأولى من المحاربين القدماء، جنود أدوا خدمتهم العسكرية في أماكن بعيدة عن مسقط رأسهم، ولكن عادوا بعد أن سرحوا إلى موطنهم الأصلي، وانضموا إلى الوضع التقليدي لعائلتهم المتواجدة في مجتمع المحاربين القدماء، الذي كان غالبية أفراده ممن حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية[3].

أما الفئة الثانية من الجنود الذين أدوا دور الوسطاء الثقافيين المخلصين بصورة واقعية جدا، كانوا من المحاربين الذين رفضوا العودة إلى أريافهم الأصلية واستوطنوا حيثما أدوا خدمتهم العسكرية، فالمحاربون ما كانوا أشخاصاً ناجحين في حياتهم دائماً، وربما عانوا من مشاكل نفسية، جرحوا أو مرضوا قبل الخدمة أو أثنائها، كذلك الجنود الذين سرحوا من الخدمة العسكرية قبل موعد نهاية خدمتهم؛ إما طردا أو حتى بشرف، كان يمكن أن يتحولوا إلى اللصوصية مثل ما حدث مع مايترنوس Maternus سيئ السمعة، (وسمي بهذه التسمية لانه كان فارا من الجيش الروماني). كما هناك مسألة أخرى للنقاش عندما نعلم كم هو عدد الجنود الراغبين في العودة إلى أريافهم؟ إن كثيرا منهم فضل التوطن في المكان الذي أنهى فيه خدمته العسكرية، فمثلا لم يكن جميع الجنود الرومان الذين تم تجنيدهم ولاية تراقيا الرومانية الشرقية راغبين في العودة إلى ولايتهم بعد انتهاء خدمتهم العسكرية[4]، كما عددا كبيرا من المحاربين الرومان الذين خدموا في سورية من القرن الأول حتى القرن الثالث الميلادي استوطنوا فيها، حيث أقام هؤلاء هنا فترة زمنية طويلة وانقطعت علاقاتهم مع أوطانهم الأصلية، وبنوا علاقات أخرى جديدة في أماكن تواجدهم، فاستقروا هنا وانخرطوا في الجماعات المدنية[5]. هذا ناهيك عن متوسط العمر في الجيش الروماني وهو 45 سنة، وبالتالي لم يتسن لجميع الجنود الرومان الذين خدموا في الوحدات الرومانية من إدراك عام التسريح، حيث قضى عدد كبير منهم أثناء خدمته

(1) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص389.
(2) Bruin, *Border Communities at the Edge*..., p.8.
(3) شيفمان، المجتمع السوري...، ص167.
(4) Bruin, Op.cit, p.9.
(5) شيفمان، المصدر السابق، ص167.

العسكرية، دون أن يتمكن من العودة إلى الريف الذي أتى منه. بينما فضل المسرحون الاستقرار في البلدات المجاورة للمناطق التي خدموا فيها حتى يبقى قريبا من رفاق السلاح[1].

في الواقع لقد فضلت الدولة الرومانية منذ عهد أغسطس سياسة توطين الجنود الرومان المسرحين (المحاربين القدماء) في الولايات التي اخضاعها حديثا، ورغم أن أغسطس ثبت مبلغ مكافأة نهاية الخدمة سنة 5م، إلا أنه لم يستغني عن سياسة توطين المحاربين القدماء. لقد اعتمد الرومان سياسة توطين المحاربين القدماء في المناطق المأهولة المكتسبة حديثا لتقوية وجودهم في هذه المناطق، كما أن هناك أسباب أخرى من بينها «الرومنة»؛ فالمحاربون القدماء شكلوا مكونا اجتماعيا مؤثرا أسهم في صبغ المجتمعات المحلية بالصبغة الرومانية، خصوصا في المناطق الحدودية، حتى وإن لم يشكلوا نسبة كبيرة من عدد السكان المقيمين في الإقليم. لقد كون هؤلاء المحاربون القدماء شبه مجتمع جديد، إذ أقاموا علاقات وصداقات متينة فيما بينهم، وزوجوا أولادهم من بنات أصدقائهم الذين منحوا حق المواطنة الرومانية، حتى يكون الزواج شرعيا. وقد أدرت روما أهمية هذا المجتمع الجديد أولا لأنه يسهم في نشر الثقافة الرومانية، ثانيا لأن أفراد هذا المجتمع سيدافعون عن حدود الإمبراطورية إذا ما تعرضت للخطر، لسببين الأول الدفاع عن الأراضي والمكتسبات الشخصية التي منحت لهم، ثانيا لأنهم محاربون متمرسون، يمتلكون جميع الخبرات القتالية[2]. وحتى نكون منصفين أكثر علينا أن نبرز الوجه الآخر لهذا التفاعل؛ فالجيش الذي يرابط على حدود الإمبراطورية ما يلبث أن يتطبع بطباع السكان ويتخلق بأخلاقهم، لكن عندما تتعرض البلاد لأزمة سواء كانت حربا أهلية أم غزوا خارجيا يشعر السكان بصدمة عنيفة، وبشيء من الهلع عندما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعيه[3].

خامساً: الرومنة والمواطنة الرومانية:

إن حب الوطن كان جديرا بالثناء في دويلات المدن اليونانية؛ إذ تشير عبارة حب الوطن وهي صيغة استخدمت في النقوش اللاتينية إلى الرابط الدقيق بالوطن المحلي (المدينة أو الحاضرة)، لا الانفعال تجاه الوطن الكوني الذي كرسته روما في العصر الإمبراطوري. بالمعنى المباشر كانت الحاضرة الوطن المكان الأصل بالنسبة للأسرة، وأرض الأجداد التي يرجع إليها الناس بعد تركها، فتغيير المسكن لا يعدل في أصل الفرد إلا إذا رفض ذلك بحريته أو فرض عليه ذلك[4]. ويبدو أن مفهوم الرومان عن الوطن لم يختلف كثيرا عما هو عليه عند الإغريق، ولما كان الرومان يفخرون بروما فإن مواطنها امتياز لا يحصل عليه أيا كان، لذلك خول القانون اليولياني Lex juliu الذي وضعه القنصل لوسيوس يوليوس قيصر سنة 90 ق.م القادة العسكريين الرومان منح حق المواطنة، للأفراد من غير الرومان؛ مكافأة لهم على الخدمة الممتازة في المعارك إلى جانب الرومان[5].

لقد كانت أهم مظاهر الرومنة هو حصول جميع أبناء الإمبراطورية الرومانية على حق

(1) Bruin, Op.cit, p.9.

(2) العمر، الجيش الروماني البري...، ص451.

(3) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها، ص289.

(4) لورو، الإمبراطورية الرومانية...، ص92.

(5) أحمد، عبد اللطيف علي، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، (دار النهضة العربية، بيروت 1988م)، ص69.

المواطنة الرومانية، الذي كان حكرا على أبناء روما فقط، داخل أسوراها، فظروف الحرب والتوسع وتحالفات روما ورغبتها في البقاء والتوسع؛ حتمت عليها منحها للشعوب المغلوبة بالتدرج، فسكان الدولة الرومانية فئتان مواطنون رومان يتمتعون بكامل المزايا التي تمنحها الدولة، ورعايا يقيمون في الولايات الرومانية هم في الحقيقية أبناء الشعوب التي غلبها الرومان، كان لابد لمدينة روما التي حصلت على مثل تلك السيطرة الواسعة، على مناطق جغرافية ممتدة وواسعة أن تدفع الثمن غاليا بالتنازل عن هذا الاحتكار[1]، إذ رفعت شعوب إيطاليا شعارا واحدا «المواطنة أو الموت»، لقد اختارت أولا نهج التودد والاستعطاف، ولما لم تحصل على شيء ثارت ثورة عمّت كل ساحل بحر أيونيا، فوجدت روما نفسها محاصرة وراء أسورها الأصلية، فلبّت الطلب على مضض؛ وهكذا أصبح كل من سكن أرض إيطاليا مواطناً رومانياً. عندئذ صارت روما غير روما؛ أي تلك المدينة التي امتاز سكانها بذهنية خاصة، بنزوعهم إلى الحرية وكراهيتهم للطغيان، بتبرمهم من سلطة الشيوخ ونفوذ الكبار[2]، روما التي نشرت حيثما ذهبت الفكرة العظيمة أن الإنسان بريء حتى تثبت إدانته، وهي التي أعلنت أن من الظلم تنفيذ أي قانون بعيدا عن اعتبار الخير أو الشر الناجم عنه، وهي التي أعلنت في قانونها أن الناس بطبيعتهم متساوون رجالا كانوا أو نساء أحرارا أو عبيدا[3].

لقد وضع قيصر خطة لتوزيع الرعوية الرومانية، أورثها من بعده لأغسطس الذي تعامل معها بحذر شديد، لكن خلفاءه لاسيما غاليغولا[4] وكلوديوس[5] كانا أكثر كرما بها. يتحتم علينا الأخذ بحرفية المصطلح الذي كرسه الاستعمال وهو «**المدينة المغلقة**» وهو اصطلاح كثيرا ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشدد على الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يمنحون الرعوية الرومانية. ويقابل هذا الوضع حال «المدينة المفتوحة» للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده، إذ راح يكثر حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للإكثار من الأنصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد، ولكن على نطاق أضيق وأصغر، رافضا إعطاء الترفيعات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشروط الثقافية والمناقب الحضارية. وسلك المسلك ذاته مع إفريقيا وآسيا، فجعل من الممالك والدول التي احتلها دول توابع له، بدلا من أن يتركها ولايات خاصة، رافضا ضمها وإفراغها في قالب الإمبراطورية إلا بعد ذلك بكثير، وهكذا وفر لها فترة الانتقال، يتولى خلالها الحكم والإدارة أمراء عرفوا بولائهم للإمبراطورية واعتنقوا المثل الرومانية[6].

(1) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص 363.
(2) مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان...، ص92.
(3) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص175.
(4) غاليغولا: كايوس قيصر جرمانيكوس، تولى حكم روما بعد تيبيريوس عام 37 م، ولد عام 12 م من اصول جرمانية ووالدته تدعى اغربينا. البلام، مريم عمر صالح، التمردات اليهودية في فلسطين القديمة (167ق.م - 66م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الاداب ، قسم التاريخ، 2018، ص286.
(5) كلوديوس: تيبيريوس كلاوديوس نيرو دروسوس جرمانيكوس، تولى الحكم بعد وفاة الامبراطور غاليغولا 41م، واستمر في الحكم حتى 54م. المصدر نفسه، ص290.
(6) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص 270.

لقد كان منح حقوق الرعوية الرومانية من أكثر العوامل التي أسهمت في تعميق الرومنة في الإمبراطورية الرومانية، لقد كان الرعوية الرومانية امتيازا تسعى له المدن، ومن حق الإمبراطور أن يسبغه على المدينة التي يشاء، وقد تباين الأباطرة الأوائل في السخاء في منح هذا الحق، فإذا كان أغسطس وتيباريوس[1] قد أوصدا باب المدينة، إذ صح التعبير، في المقابل كان غيرهم من الأباطرة من أمثال كلوديوس قد فتح الأبواب وشرعها على مصرعيها، أما الشيء الثابت والأكيد أن القضية قضية نسبية ونزعة عامة، إذ لم يتخلف أحد من هؤلاء الملوك عن الإنعام بمثل هذا الحق، ولمرات عديدة، لعدد كبير من المواطنين الجدد. وتجدر الإشارة أن حق الرعوية الرومانية تكتسب بصورة تلقائية من الطبقات الوجيهة، ضمن نطاق البلدية، وفقا لوضع مدينتهم الشرعي. ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وإنعامات خاصة تعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش، أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في الوحدات المساعدة، فإذا خفت الحركة أو تباطأت في عهد تراجان فإنها استشرت واتسعت في عهد الأسرة الأنطونية، إذ أنعم أباطرة هذه الأسرة على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات بحق الرعوية الرومانية، بحيث أن كل المواطنين يكتسبونها إذ لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل بصورة شخصية. وهكذا فالمرسوم الإمبراطوري الذي أصدره كركلا[2] سنة 212م قد منح جميع الرجال الأحرار الذين ولدوا ضمن الإمبراطورية حق المواطنة[3].

إن من العبث أن يحاول المؤرخ التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الإمبراطورية والشعب المظفر الغالب، وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة وإشراف الإمبراطور، مطلق السلطة والإدارة، إمبراطور امتدت سلطته إلى أقصى أطراف الإمبراطورية، لا تجر على سكان الولايات مغنما ماديا ملحوظا، بل على عكس ذلك تعود عليهم ببعض الغرم، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين، ومع ذلك فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازا كبيرا، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومان، ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد عليه أن يرجع بالفكر إلى ما كان عيه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية[4].

لم يكن الحصول على حقوق المواطنة في الدولة الرومانية أمرا عادياً، بل أمراً عظيماً؛ فالمواطن الروماني كان متميزا أينما حل وأينما أرتحل، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك ما حدث للقديس بولس إذ أنقذته رعويته الرومانية من الجلد، وخولت له حق التماس العفو من الإمبراطور نفسه. إن محاكمة المواطن الروماني همي مهمة السلطات الرومانية وحدها، وهذا لم يكن بحاجة لأي تأكيد، وهذا أمر منطقي فلو أن السلطات الرومانية وضعت سيادة مواطنيها تحت تصرف السلطات المحلية

(1) تيباريوس: تيبريوس دروسوس كلاوديوس نيرو، ثاني اباطرة روما، والابن المتبنى لأغسطس، والدته تدعى ليفيا، وصل الى الحكم عام 14 م وتوفي عام 37م. البلام، التمردات اليهودية في فلسطين...، ص277.

(2) كركلا: ماركوس اوريليوس سيفيروس انطونيوس احد اباطرة روما، تولى الحكم خلال المدة (217-211م).

(3) ايمار، وجانين اوبوايه، روما وامبراطوريتها... ص373.

(4) المصدر نفسه، ص374.

للمقاطعات لفقدت المواطنية أهليتها الحكومية الفريدة[1]. فمع أن القديس بولس كان يهوديا من طرسوس، فقد كان أيضا رومانيا، حسب سجلات الدولة، فقد قبلت المدينة الصغيرة في آسيا الصغرى في الاتحاد الروماني، وبينما كان بولس يسير في المدينة، قبض عليه الجنود الرومان، وأرادوا أن يجلدوه، ولكن قبل أن يباشروا بذلك صاح فيهم: «**أنا مواطن روماني**»، فأخبروا بذلك قائدهم، فما كان من قائد الجنود الرومان أن منعهم من المساس به، وأمرهم أن يرسلوه من المدينة إلى قاضي الإقليم ليعرض عليه، وأمام قاضي الإقليم صالح بولس: «**ارفع دعواي إلى قيصر**»، وقد جاء رد الوالي أن من حقه أن يذهب إلى قيصر: «**رفعت دعواك على قيصر، وإلى قيصر سوف تذهب**». **وقد ذهب بولس إلى روما محاطا بالجنود الرومان**[2].

كان منح حقوق المواطنة الرومانية خيرا على أبناء الولايات التي استفادوا من مزاياها، لكنها كانت وبالا على روما؛ فجميع سكان إيطاليا أصبحوا مواطنين رومان، جاءت كل جماعة بمزاجها الخاص وأغراضها الضيقة وولائها لمن يحمي مصالحها من الكبار، فتفرقت روما إلى شيع ولم تعد تكون وحدة عضوية. لا تعدو مواطنة هؤلاء الأفاقين أن تكون شكلية، إذ أنهم لا يخضعون لنفس الحكام، لا يعيشون داخل نفس الأسوار، لا يتقربون لنفس الآلهة، لا يقصدون نفس المعابد، لا يزورون نفس المقابر. لم يروا روما كما كان يراها المواطنون الأوائل، ولم تربطهم بها نفس الأواصر، فاختفت إلى الأبد تلك المشاعر التي نسميها رومانية[3]. زد على ذلك أن هؤلاء المواطنين الجدد كانوا معفيين من الضرائب، وتشملهم قوانين الإطعام؛ فاضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطني روما الفقراء، وذلك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة، وتوزيع الدراهم عليهم في بعض المناسبات المهمة، لتوفير أسباب العيش لهم، وتقديم العروض الترفيهية لهم في الأعياد والاحتفالات الرسمية مجانا، أثر سلبا على مدينة روما ذاتها، لقد كانت كلمتا «الخبز والملاهي» اختصارا للجنون الشعبي والاندفاع الحماسي والشعبوية التي لا حد لها، واختصارا إلى ما آلت إليه الأمور في مدينة روما، كان يكفي التلفظ بأسماء الممثلين والمغنين والراقصين أو الحديث عن سباق المركبات في حلبة المصارعة، حتى ترى الجنون الشعبي في أقبح صوره وتجلياته[4]. كان أعظم الأباطرة الرومان أحيانا يحسب حساب جمهور المدينة، كان فقراء روما قوة معترفا بها، فلا توجد بروليتاريا أخرى على مر التاريخ تحصل على الطعام والعروض المجانية[5].

لقد تبدل المشهد في القرن الثاني الميلادي إذ لم يعد الأباطرة من الطبقة الارستقراطية في روما أو حتى من إيطاليا، لقد كان أباطرة القرن الثاني الميلادي قد ولدوا ونشأوا في الولايات، وكان بعضهم مواطنين رومان أحرار جاءوا من إسبانيا (تراجان وهادريان[6]) وبعظهم مواطنين رومان أحرار ممن استقروا في بلاد الغال (الامبراطور انطونيوس بيوس (138-161م) ومارك أوريل)، ولنشأة

(1) شيفمان، المجتمع السوري...، ص170.
(2) هاملتون، الأسلوب الروماني...، ص176.
(3) مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان...، ص92.
(4) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها...، ص367.
(5) هاملتون، المصدر السابق، ص156.
(6) هادريان: ولد الامبراطور الروماني بوبليوس اليوس هادريانوس عام 76م في احدى مدن الغال، وحكم روما خلال الحقبة (117-138م).

هؤلاء الأباطرة من أصل ارستقراطي في البلديات بالولايات فقد حافظوا على صلاتهم بمواطنيهم ومساكنهم القديمة في كل من الشرق والغرب. وعلى ذلك فالطبقات العليا في المجتمع الروماني بعدما تضخم عددها إذ ذلك لم تعد تمثل الارستقراطية في روما أو في إيطاليا بل أصبحت ممثلة لأرستقراطية الإمبراطورية وهي أكثر طبقات سكان المدن في أنحاء العالم الروماني ثراء وأفضلها تعليما وهؤلاء الأشراف الجدد كانوا ممن وقع عليهم اختيار الأباطرة من بين أكثر الناس ثقافة وتعليما في طول الإمبراطورية وعرضها. وهذه الطبقة الأرستقراطية الجديدة وجلها من أصل إقليمي كانت بالطبع خير من يفهم مطالب الولايات ويقدر تماما حتى تلك الولايات في مراعاتها وحكمها لا على أنها إقطاعات مملوكة للشعب الروماني، بل على أنها عناصر أساسية في تكوين الدولة الرومانية، لقد بدأ هذا التحول في عهد أغسطس وبعض خلفائه ولاسيما تيبيروس وكلاوديوس ثم بلغت الذروة في عهد الأنطونيين[1].

في مثل هذه الظروف كان من الطبيعي أن النظرة السلفية والعرف القديم الذي ساد في حكومة الولايات يجب أن يتوارى تماما، وأنه على أباطرة القرن الثاني أن يشعروا بأنهم ليسوا أباطرة مدينة روما، أو أباطرة المواطنين الرومان الأحرار وحدهم، بل هم للإمبراطورية جمعاء، ويدل على ذلك أمران: أحدهما التوسع السريع في منح حقوق الجنسية الرومانية في كل أنحاء الإمبراطورية، والثاني التساهل في منح البلدان الإقليمية حقوق البلديات الرومانية، أو المستعمرات الرومانية أو اللاتينية وتثبيت السياسة الجديدة التي درج عليها أباطرة ذلك القرن في النواحي المالية والاقتصادية والاجتماعية[2].

لقد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها، إن روما التي رأت النور مدينة، لم يكن في وسعها أن تتصور لنفسها كيانا غير هذا الكيان الذي كانت عليه، إذ لم تستطع أن تكيف نُظمها المدنية للدور الذي تستوجبه سيطرتها على أرض إمبراطورية شاسعة. صحيح أنها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم تُبد مثلها مدينة من المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق له مثيل، لكن ذلك استوجب أن تجري تبدلات عميقة في بنيتها الإدارية والتشريعية، لاسيما أن سكان هذه المدينة كانوا مختصين بالتشريع وصياغة القوانين، وبالتالي كان لا بد من سن قانون جديد قادر على تنظيم أمور الإمبراطورية على أسس جديدة، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بها الملك ورعاياه على السواء[3].

الاستنتاجات:

من خلال ما تقدم من بحث التأثير الروماني سنتطرق الى مجموعة من الاستنتاجات:

1. لقد اعتدت روما بنفسها في بداية بزوغ نجمها بشكل كبير جدا، اذ كانت ترى نفسها بأنها سيدة العالم وهي الوحيدة التي تتمحور حولها اصالة الحضارة، اذ اخذها عنفوانها بنفسها ، الا انها بعد ان رأت الشعوب المجاورة لها وما يملكون بدأت تغير من نظرتها تلك ، وهذا ما اثبتته عملية

(1) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية،ص ص182، 183.

(2) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية...، ص184.

(3) إيمار، وجانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها..، ص364.

تأثرها بعاداتهم وتقاليدهم وذلك لحاجتها لمثل هكذا تأثيرات.

2. استقت روما فكرة الرومنة ونشر ثقافتها بين الشعوب المغلوبة من فكرة الهيلينية بعد ان اسبغت عليها صفة الرومانية من اجل ان تنسبها لها، الا انه من خلال دراسة الاثنين مع عمل مقارنة بينهما يتبين بأن الموضوع وجهين لعملة واحدة.

3. سعت روما للتقرب من كل وسيلة تقربها من حلمها بنشر هذه الثقافة ولم تتوانى في ذلك، وهذا ما تؤكده مناصرتها للفلسفة الرواقية وروادها، اذ رأت في تعاليمها ما يحقق حلمها ، والا لماذا رحبت بهذه الفلسفة بالذات؟.

4. لم يكن التأثير الروماني على الشعوب المغلوبة فقط تأثير، بل تأثرت روما كثيراً بثقافة الشعوب المغلوبة ، لا سيما الثقافة الهيلينية التي رأت فيها ما يقارب افكارها وطموحها، وهنا تولدت لدينا مسألة تثاقف حضاري، اي عملية تأثير وتأثر.

5. بالرغم من مساعي روما الحثيثة من اجل نشر ثقافتها وبشتى الطرق الا ان هذه الشعوب لم تكن جميعها مؤيدة لمثل هكذا عادات، فمثلاً اليونان رحبت بهذه المؤثرات كونها تشبه عاداتهم الى حد ما ، في حين واجهت مصر وبعض المناطق السورية هذه المؤثرات بالرفض ومن ثم رضخت للأمر الواقع، اما بالنسبة للمكون اليهودي فلم يستجيب لهذه التأثيرات نهائياً، بحيث تمكن فسباسيان وابنه تيتوس من تشتيت شملهم وهدم هيكلهم ولم يرضخوا لما طلبته روما منهم.

المراجع العربية والمعربة:

1) أحمد، عبد اللطيف علي، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربية، بيروت 1988م.

2) إيمار، اندريه، وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط2، منشورات عويدات، باريس-بيروت 1986م.

3) بابليون، جان، إمبراطورات سوريات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطورية الرومانية، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق 1987م.

4) برهييه، اميل، تاريخ الفلسفة، ج2، الفلسفة الهلنستية والرومانية، ط2، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت1987م

5) بيرنت، جون، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: احمد لطفي السيد، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1940).

6) حاطوم، نور الدين، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج1: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق 1965م.

7) ديورانت، ول، قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ج2، مج3، ترجمة محمد بدران، بيروت 1988م

8) رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة زكي محمود، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، المملكة المتحدة 2023م.

9) رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمد

سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.
10) الزين، محمد، الآثار الرومانية، منشورات جامعة دمشق، دمشق 1991م.
11) الزين، محمد، الكتابة والتدوين عند الرومان حتى القرن الأول قبل الميلاد، ضمن مشروع نقد الحضارة الغربية، الكتاب التاسع (الرومان بين القرنين الخامس والأول ق.م)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت 2022م.
12) شيفمان، المجتمع السوري في عصر البرينسيبات، من القرن 3-1م، ترجمة حسان إسحق، دمشق 1987م.
13) لورو، باتريك، الإمبراطورية الرومانية ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي 2008م.
14) العبادي، مصطفى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 1999م.
15)لافرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت 1985م.
16) مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2011م.
17) الناصري، سيد احمد علي، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة 1991م.
18) هاملتون، اديث، معجم الاساطير اليونانية والرومانية، تر: عبد الاله الملاح،(دار المدى، 1999م).
19) هاملتون، اديث، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق 1997م.
20) هوميروس، الالياذة، تر: درويني خشبة، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2003م).
21) يوليوس قيصر، حروب الغال، تر: محمد حمدي ابراهيم، (دار المعارف، القاهرة،1990م).

الرسائل والاطاريح:

1. البلام، مريم عمر صالح، التمردات اليهودية في فلسطين القديمة (167ق.م - 66م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الاداب، قسم التاريخ،2018.
2. البياتي، شهد رشاد ادهم، الامبراطور فسباسيان ودوره في الامبراطورية الرومانية (9-79م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الاداب، قسم التاريخ،2018م.
3. الخطيب، مأمون، الطرق الرومانية في سورية، دراسة تاريخية أثرية (64 ق.م- 330م) رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، د.ت.
4. العمر، بديع، الجيش الروماني البري في الفترة الإمبراطورية (31 ق.م - 284م)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق 2010م.

المراجع الأجنبية:

1. Bowman, Jhon L., Stoicisim, Enkrasia and Happiness,(United Statesof America: Luniverse,2011).
2. Bruin, J, de., Border Communities at the Edge of the Roman Empire., Amsterdam

11. Scullard ,H.H.A, History of the Roman world:753-146B.C,(Routledege,1980).
12. The Oxford classical Dictionary, 4th edition, (Oxford University press,2012).
13. Walbank, F.W., The Hellenistic world and the coming of rome,(Cambridge University press,1981).
14. Wiseman, R., On the back of the army: A comparative study of Romanization in Britain and Egypt, A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the Master of Arts in History., University of Nevada, Las Vegas, December 2011.

University Press, Amsterdam 2019.
3. Grossman, Mark, World Military Leaders: A Bioghraphical Dictionary ,(New york :facts On file, Inc,2007).
4. Gruen, E. S, The Augustan Empire 43 B.C – 69 A.D., The Cambridge Ancient History., Vol X; The expansion of the empire Under Augustus; Egypt Ethiopia and Arabia., Chapter 4; Cambridge University Press 1996.
5. Hanssen, A. B., Romanization - discourse and changing concepts., An analysis of altering interpretations of Roman-native cultural encounters, their participants and dynamics., Master Thesis in Archaeology Department of Archaeology, Conservation and History University of Oslo Spring 2009.
6. Hardy, Th. A., Gods, Armies, and Tax Collectors: Cultural Connection in Roman Egypt., Illinois University.
7. Lewis. B., The Middle East 2000 years of History from the Rise of Christianity to the Present Day, London, 1996.
8. Miguel John Versluys, Understanding objects in motion. An archaeological dialogue on Romanization., Archaeological Dialogues 21 (1) 1–20 C Cambridge University Press 2014.
9. Palmer, Micheal, Israel in the Hellenistic Age,(History &Literature of the bible,2002).
10. Revell, Louise, Roman imperialism and local identities,(Cambridge: Cambridge University Press,2009).